سمير الفيل

ظل الحجرة

رواية



الكتاب : ظــــل الحـجـرة

الكاتب : ســـمير الفيـل

الناشر : مركـز الحضــارة العـربيـــة

الطبعة الأولى : القاهـرة ٢٠٠١

رقم الإيداع : ٢٠٠١/١١٥٧٨
الترقيم الدولى: I.S.B.N.977-291-327-5

الغـــــلاف
لوحـة للفنان : حســن راشـد سيـد
جـرافيـــك : نـاهـــد عبد الفتاح

الجمع والصف الالكترونى :
وحدة الكمبيوتر بالمركز
تنفيـذ : ســـيد حـرزاوى
تصحيح : زكــريـا منتصر

ظل الحجرة

روايـــة



- مركز الحضارة العربية مؤسسة ثقافية مستقلة ، تستهدف المشاركة فى استنهاض وتأكيد الانتماء والوعى القومى العربى، فى إطار المشروع الحضارى العربى المستقل .
- يتطلع مركز الحضارة العربية إلى التعاون والتبادل الثقافى والعلمى مع مختلف المؤسسات الثقافية والعلمية ومراكز البحث والدراسات ، والتفاعل مع كل الرؤى والاجتهادات المختلفة
- يسعى المركز من أجل تشجيع إنتاج المفكرين والباحثين والكتاب العرب ، ونشره وتوزيعه
- يرحب المركز بأية اقتراحات أو مساهمات إيجابية تساعد على تحقيق أهدافه
- الآراء الواردة بالإصدارات تعبر عن آراء كاتبيها ، ولا تعبر بالضرورة عن آراء أو اتجاهات يتبناها مركز الحضارة العربية .

◆

رئيس المركز

على عبد الحميد

مدير المركز

محمود عبد الحميد

مركز الحضارة العربية
٤ ش العلمين - عمارات الأوقاف
ميدان الكيت كات - القاهرة
تليفاكس : 3448368
E-mail:Arab-civilization-center@yahoo.co.uk

الفصل الأول

صفعة مساء قديم

كانت الردهة واسعة ومضيئة. رائحة الفورمالين تنتشر نافذة فى كل مكان. يدها باردة وزرقاء. الهواء لا يتحرك. ماذا ورثت من ملامحها غير تلك النظرة الصارمة التى يختبئ فيها قلق عميق؟

بلا إحساس بالسخط سحبت الملاءة وغطيت الوجه، فقط انتابنى نوع من الفزع رمادى له خطوات ثقيلة توجع القلب.

فى العنبر المجاور شقت صرخة الهدوء . كان عويل أسود يطرز الموت فى خطاه اللاهثة المحمومة. لم تزلزلنى الصرخة. اعتصرتنى رجفة لأننى معها وحيد. المعاطف البيضاء تتلاحق فى وجوم وقد طوقتها العادة.

زوبعة صغيرة سرعان ما تنفض على التوَ تاركة عفارها، وفوضاها بعد أن تثور لحظة. لم يكف عقلى عن إثارة الأسئلة الصغيرة وأنا أروح وأغدو فى الممر الصغير المفضى إلى الحديقة التى اختفت خضرتها فى ظلام ذلك الليل.

ورثت اتساع العينين، وسخط هائل على العالم من حولى وتدبير مؤامرات صغيرة بحكم العادة للإيقاع بالبشر الذين يخبون فى حللهم الباذخة وتفاهاتهم التى لا تنتهى.

قامتها المديدة، والغضون التى تملأ الوجه، وصفاء البشرة. هل انتهى الأمر أمامى كما بدأ فى غيبتى؟. ما سر هذا الاندثار المفاجئ والمبهم. هل تنتوى صفعى برحيلها؟

جرتنى من شعر رأسى، ولطمتنى ثم تركتنى أغرق فى خجلى،

وسوسن منكمشة على نفسها . لم تكن تبكى لكنها تشعر بالصفعة على وجهها . تتحسس جلد وجهها بخوف . ذلك الخمود للمتعة ، ونور القمر بان مختنقاً ، والهوائيات ، ونعيق البومة التى تطاردها المقشات فوق الأسطح .

قالت وهى تحاول النفاذ من بين ألواح الخشب المتراص إلى سطح منزلها : انزل ! همست وهى ترانى جالس القرفصاء كنسل قردة . بوجه فحمى اصطلى بالنار : فى الغد نتحدث !

بعينين منطفئتين ، ومعطف مقفول ، وجسد نحيل ، وهى التى ترتجف وأنا أضمها . تلثمنى فى ضحكة طفولية جميلة ، وحزامها الأزرق العريض تطوقنى به ، وتقول لى : أنت عروستى ! !

أسخط عليها ، وابتسامتها محيرة ومتوجسة . ابتسامة لها حافة من ضوء وخضرة . قالت : لماذا تأخرت ؟

ولم تعد سوسن تصعد . أحكمت غلق باب السطوح . وكلّمتها فى غيابى من الشباك المجاور . قالت لأمها كل شىء . الذى حدث والذى تصورت حدوثه .

لتت وعجنت فى الكلام ، عن العفة وسيرة البنات والواجب ، وحقوق الجيرة . وزادت بأنها أخلت مسئوليتها تماماً .

حين حملت طبق الفول وجدتها هناك . قلت : صباح الخير يا سوسن .

صمتت . لم ترد ونظرت إلى الشارع المبلول . لم يكن بمقدورها أن ترفع وجهها لتنظر فى وجهى . وهى التى كانت تعرف مكان (الحسنة) أسفل ذقنى وتمنحها امتيازات خاصة .

شربت المطر بوجهها . وبضفائرها التى كنت أشمها مبتلة رحلت بعيداً .

قذفت بباقات الورد الذابلة من النافذة المفتوحة عن آخرها . أسدلت الستائر الباهتة القديمة . لم أكن وحدى الآن فقد امتدت أيد عديدة لتزيح قماش الستارة كى يدخل الهواء .

دخلت ممرضة جميلة مقصوصة الشعر تحمل صندوق البرشام، والحقن، والقطن الطبى، ومقصات معدنية صغيرة. نادتها امرأة حولاء أن تأتى لتقيس درجة حرارتها. قمت من مكانى. أمسكت يدها وأشرت لها بيدى إشارة ذات مغزى.

بدت فى ثوبها الأبيض الملتصق بالجسم، والذى يبرز كل تفاصيلها العارمة بالنشوة والحياة نقيض اللحظة الحرجة التى أعيشها.

هزت رأسها وقالت كلمة واحدة: انتظر!

قبل أن يتحلل الجسد وتفوح منه رائحة العفن علىَ أن أتفادى ذلك الانتظار الممل، وأن أعود بها إلى المنزل بشكل لائق حيث يُرصع الليل باللطمات المتوارثة والصرخات المصطنعة، ويكون علىَ وقتها أن أغلق على نفسى الباب ممتنًا.

أزاحت طرف الملاءة، فبدا وجهها راضيا، وباردًا بكل قسوة الانسحاب من الحياة.

شهقت متراجعة، ولكن بدون فزع، فقط فاجأها التوقيت. رمقتنى بنظرة غريبة: منذ متى؟

قلت بصوت خفيض تبينت أنه شاحب ومرتجف: منذ لحظات!

سألتنى ثانية فى ريبة: لماذا لم تضغط الزر؟

حشرت جسدها الممشوق فى المسافة ما بين السرير و(الكمودينو)، وضغطت على اليد، ثم أعلى الترقوة، ومرت بيدها فى اتجاه العنق، بادرتنى: منذ ربع الساعة؟

قلت بغير أسى: ما الفرق؟

فى هدوئها وحيائها المتغطرس هزت رأسها: قابل مدير المستشفى!

نظرت خلسة إلى وجهها وتحت استدارة نهديها، وصعدت بنظراتى إلى عنقها العاجى البديع. اصطدمت عيناى بعينيها المترقبتين. خمنت أننى أريدها. سألتها: ما اسمك؟

فى البـداية لم ترد . أطنـان من جـرانيت تحـيط قلبى ، وبـاب المقـبـرة يفـتـح . والدائم هـو الله . فـهـل يمكننـى أن أفلت لحظة من طقـوس ذلك الموت الذى سعى إلى عقلى بكل جبروته ؟

قالت : هاشمة !

فى انحـدار العرق على وجنتيـهـا باحت باسـمـهـا . ودخلـت ممرضـة أخرى منتـفـخة العينـين وقد تضـخم بطنهـا وبدت فى شـهـرهـا التـاسـع . غمزت لى : ستضع الليلة !

فطنتُ إلى مـغـزى العبـارة ، أمـا هى فـقـد أبدت نـوعًـا من الغـبـطة المستترة : تعبت من ذلك الحمل . قطيعة !

انقض على صـدرى هم مفـاجئ ، ودخلت العنبـر فجأة ومن خـلفـهـا زوجـهـا عبـد السـلام . كـانت تحـمل كـيـسـين من اللبن وبعض قـراطيس الفاكهة . رأت المنظر فوجمت ثم اندفعت فى نحيب مؤلم .

قلت لنفسى : لم يكن بمقدورى أن أتصرف فى موقف كهذا !

قال زوج أختى منيرة : البقية فى حياتك ؟

هززت رأسى ، وفكرت أنه مصـارع قديم ، وتاجر للأدوات الصـحية يعرف أكثر منى فى هذه الشئون .

أزاح زوجته وشخط فيـهـا أن تكف عن هذا البكاء الذى لا جدوى من ورائه . بحث فى ذاكرته وهرش رأسه ، وكلمها عن حديث شـريف يحرم البكاء على الميت لأنه يقلق عظامه فى قبره .

اندفعت بلا تفكير : لكنها لم تدخل القبر بعد .

فلتت العبارة ، وجز على أسنانه ، تحامل على نفسه ، أخذنى من يدى : تعال معى . كان يعرف بالفعل ماذا ينبغى فعله . حين يصطدم بالروتين واللوائح فإن حافظة نقوده المنتفخة قادرة على تذليل كافة الصعاب . حمل الروشتات وجاء بإذن الخروج ، ورقة مربعة بيضاء بها عدة سطور بالآلة الكاتبة وفى الركن الأيسر من أسفلها إمضاء مدير المستشفى ،

وخاتم أسود مستدير. اتفق مع السائق وكنت أسير خلفه كظله الذى لا يدفع ولا يتكلم. فجأة وقف فى مواجهتى يتأملنى كأنه يرانى لأول مرة. شعرت بما يعتمل فى صدره نحوى من عداء وكراهية. ود أن يحطم فكى بقبضته فى لكمة مفاجئة.

قال لى وهو يتنهد بصوت مثير للشفقة: يلزمك أن تعود للمنزل الآن. اسبقنى للعربة!

مرت بى هاشمة، وأنا أبحث عن منفضة لألقى فيها عقب سيجارتى. أخذتنى من يدى: ما بال وجهك مصفراً؟

أدخلتنى حجرتها. خلعت غطاء الرأس الذى كان يلم شعرها. ثم فكت بنس الشعر. تأملتنى مليًا: يبدو عليك الإعياء.

نثرت شعرها الفاحم كالليل. جهزت كوبين من الشاى.

ممددة هى الآن فى ذلك الليل المروع كلوح من رخام لا يحس. ليس بمقدورها أن تصفعنى أو تعتذر لى بأن تلطم الوجه فى المرآة وتخمش بأظفارها وجهها. وتذكرنى بأيام كانت تحملنى فيها لتقذف بى فى فضاء الحجرة. تخاف أن يصطدم رأسى بصورته فى الإطار. والشريط الأسود يطوق الصورة.

كان يمكنها أن تعطى ظهرها للرجل الذى ذبحته بأكاذيبها الصغيرة وغطرستها، وأن تمضى فى ابتلاع أوهامها حتى النهاية. ليس لها الآن أن تقبلنى بمرارة وتصفعنى مرة ثانية بقولها الجائر: كان يخشى أن ينفلت عيارى. ولقد أحكم غلق النوافذ والأبواب. وأقام أسواره. لكننى جمحت رغم حبى له. فلتُّ من بين أصابعه. لأريه أنه رغم جبروته إله هش من الصلصال.

هل لى أن أشعر بالغضب أو الكراهية، وأنا واقف أرقبها كخيال مآتة: جسد متآكل، وملابس رثة، ونفس ممزقة.

ما الذى جعلك تعدين لى كوب شاى؟

فتحت الزرار الأول فبرز نهدان ممتلئان ، وبانت حلمتان ورديتان تحتهما وهى تنحنى لتبحث عن الأكواب الكريستال. على أية حال أمامك خمس دقائق يمكنني أن أتحدث معك خلالها.

لم يكن من المحتمل أن أراك مرة أخرى. هل يمكن للعصافير أن تزقزق فى الليل؟

وهل أشجار السرور خارج السور لها نفس اللون الأخضر الزاهى ؟

تأملتنى، وزغلل نظرى اللون المصفر لتلك اللمبة التى تضىء الغرفة. تعكس ظلها على الحائط وهى تتحرك.

بدت فائرة وعارمة بالنشوة. تمتلك ذلك الصخب الذى يسبق لحظات الاصطدام المروع الليلى حيث تشتجر الأجساد وتفصح الأرحام عن رغبتها فى احتواء مولود جديد.

لها نفس النمش الخفيف الذى يعلو الوجه. نفس انفراجة الشفتين لاشتهاء قديم.

قالت : هاشمة !

وهى تملك نفس اللمسات الرقيقة لسوسن التى ضممتها فى سنوات الصبا داخل عشش الفراخ التى تغرق فى الظلمة.

كانت الدنيا بلون الحليب الصافى. ترفع سبابتها وتضم شفتيها : هس.

هل تذكر كيف التقينا ؟ أتلصص لأسرق شرائح البلح المفصوص فوق الألواح الخشبية حيث (الشخشيخة) . رغم الظلمة رأيتها تتسلق العروق الخشبية حتى صارت فى مواجهتى. لم ترنى، وامتدت يدها تقبض على الفصوص المغطاة بملاءة قديمة. قلت لها : ياالصة ! فزعت، وبكل جرأة تحسست جيب سترتى: يا لص. وغرقنا فى ضحك مكتوم.

ممددة، وينفتح القبر، والدائم هو الدائم. ولا يبقى إلا وجه ربك ذو الجلال والإكرام.

في وضح النهار رأيت سوسن تحمل حقيبتها خلف ظهرها كالعادة. لكنها محت الحرف الأول من اسمي وكان باللون البرتقالي وبحروف (الكابتل) الإنجليزية.

واجهتني ولم تطفر دمعة من عينين صافيتين أحببتهما. قالت لي في غل وبقسوة أدركت معناها بعد أن تقدمت السنوات تزحف من ثقل الأسى والأحزان: انتهى كل شيء!

وتلك الرسائل المبرقشة بكلمات منمقة، ورسوم جميلة، نفضت التراب من فوق صندلها الرصاصي: أتعرف ما قالته أمك؟

قلت أدافع عن نفسي: هي الآن ترقد في العنبر. لن تشعر بنا بعد اليوم.

بكت والنمش الخفيف بدا ظاهراً، ولم تك تضع الطلاء على شفتيها المكتنزتين. بصوت مختنق: انتهى ما بيننا يا عبد العزيز.

واحتبس صوتي وأنا أبكي. أما هاشمة فقد مدت يدها بكوب الشاي الساخن وتصاعد البخار. قالت لي لقد اطمأن قلبي الآن.

أضافت وهي تشهق بعمق: كان يجب أن تبكي. استدارت وأحضرت قطعة من السكر. قلبت بالملعقة، وفي مواجهتي وضعت ساقًا فوق ساق.

لم يعجبني هذا. قلت وأنا أسمع صوت نفير السيارة الضخمة السوداء: لقد فهمت خطأً. لم أبك. أعتقد أنني لم أبك مطلقاً.

أطلقت ضحكة وهزت رأسها مؤكدة أنها قدمت لي كوب الشاي عدة مرات. وفي كل مرة كنت أزيحه بظهر يدي. وأضرب بقبضتي المنضدة الرخامية.

قامت تتأملها. قالت إن بها شرخًا وإن عليّ إصلاحه. فتحت زراراً جديداً ورأيت لون الكمبلزون الفُستقي.

وباب المقبرة بدا برونق يحتمل. قلت لها وأنا أتحسس كلماتي كالضرير وأنا أزيح كل القواميس والمراجع التي تفسر المشاعر الإنسانية: أنا من سلالة البشر الذين خلقوا من طين. وإن الشيء الذي انكسر

له قلبى تلك الصفعة التى وصمتنى بالقهر مرتين. مرة فى ظلام ليل السابع من سبتمبر عام ١٩٦٠، ومرة أخرى فى صباح الخامس من يونيو بعد الصفعة الأولى بسبع سنوات.

قالت بعجرفة لا تليق بها: لا أحب الدخول فى متاهة السياسة!

كانت بالفعل رشيقة، وتدعونى إلى اللقاء الغامض المثير. قلت لها: بعد الأربعين هل يمكننى أن أزورك؟

قالت وهى تستدير وتحكم إغلاق النافذة، والباب: إن الثمرة ناضجة وهى على وشك.. قاطعتها: إن الصفعة هى التى تمنعنى، ونفير السيارة، والجسد المتخشب لأمى.

قالت هاشمة وهى تصفعنى للمرة الثالثة فى حياتى: قل إنك عاجز!

ثم إنها أغلقت أزرار قميصها ولمت شعرها وغرست بنس الشعر، وقذفت بالكوب الكريستال فى السلة بعيداً قبل أن أكمله. فتناثر التفل على الحائط. عليها أن تهتف بى لتطردنى: اخرج.

لكنها انخرطت فى بكاء مرير وألقت بنفسها على سرير معدنى فى ركن الحجرة.

كانت اللحظة منسية والحزن يتسلل حتى النخاع، ووميض نشوة مبتورة.

قلت وأنا أهزها: إن البكاء لا يليق بك.

هو الآن ينزل الدرابزين. يحمل الجثة فى طريقه إلى السيارة. وربما تذكرنى فجأة وأدرك أننى لا أصلح لأى عمل.

أصلح للموت أم للحياة؟ هل يعلم أن قبراً ضم رفاتى دون أن تعلم العائلة، هل يعلم؟ بادرتها بتربيت خفيف على كتفها.

استكانت وكأن حفيف أوراق أشجار النخيل فى خارج الغرفة ينتحب.

خفق قلبى وخفت أن يدخل مدير المستشفى فيظن بى الظنون. قلت لها إننى سأزورها بعد أيام. وإننى سأتزوج بها. وسأطوف معها

عواصم العالم، وسأجعلها سعيدة

قالت بنظرة مستكينة فضحتني كاذب!

فى الطابق الأعلى كان صرير عجلات السرير المعدنى يهزنى مندفعا دون شك إلى حجرة العمليات. المشارط معقمة والقفازات. وتلك الكشافات التى تظهر الشرايين والأوردة والأجزاء التى لابد من استئصالها!

حين هممت بإطفاء نور الغرفة تحسست صدغى. قلت لها إننى خائف وإننى لست البطل الذى تبحث عنه لأننى إنسان وصولى وانتهازى، أبله، وضعيف.

جذبتنى وقالت إن هذا بالضبط هو ما تبحث عنه، لأنها خدعت فى الرجال الذين يدعون البطولة والشهامة ونظافة اليد والفحولة.

ثم أخذتنى من يدى وأدخلتنى مملكتها بنفس الحذر غير عابئة بذعرى.

كانت مفاصلى تطقطق ورجفات لها ومض البرق تعصف بكيانى.

كان نفير السيارة الضخمة السوداء لا ينقطع. ثم إن السيارة مضت بدونى. هبطت درجات بئر ماله من قرار. كان الضوء يحف به، ورحيق أزهار الياسمين وطعم العسل الملكى.

ولقد انتصف الليل وسمعت دقات الساعة بينما أنا مندفع دونما إرادة منى فى الهبوط.

ولقد أدمى قلبى أننى فى قاع البئر عثرت على جمجمة صغيرة، وشريط كحلى تأملته بفزع. فقد كانت سوسن تضفره بشعرها ليلة أن أتت أمى! ●

الفصل الثانى

ورد أسود

تلك التفصيلات تخصنى، ولا يمكننى البوح بها. بمقدورى الآن أن أهبط درجات السلم الرخامى المعروق، وأن أستسلم لليل الحالك الذى نادراً ما أحترمه وأسترق السمع لخطاه.

علمنى معاز أن لا أسلم أمورى له مهما بدا غامضا وبعيداً.

حين خرج من السجن فى المرة الأخيرة كان يعرج. استند إلى كتفى، زفر ونبرات صوته تشى بانهزامه: نعم، تعبت!

سألته عن حقيقة عرجه قال: إنه الروماتيزم. فالزنازين تنشع بالرطوبة المميتة. حدقت فى وجهه كان شاحباً، أما رأسه فالشيب يزحف ليحتل المقدمة.

قلت له: سجنت كثيراً، وحالنا لم يتغير إلى الأفضل. لقد دفعت فاتورة كاملة لشىء لم تحصل عليه.

رمقنى بنظرة حائرة: يبدو أن هذا صحيح. هل لك فى سيجارة؟

اعتذرت وسرت معه دون كلمة.

تحسس فكه وقال إن ضرسه يؤلمه، وإنه فى زنزانة التأديب خلعوا له ضرساً سليماً وتركوا المصاب.

قلت له إن السوس قد زحف فى كل مكان. وإن عليه أن يتخيل الأمور بعد خمسين عامًا كيف يكون حالها. وإن الاجتماعات السرية داخل الغرف المغلقة لم تحل الأزمة. هى تسبب ضيق التنفس وانسداد الشريان التاجى فقط لأن المكان دائمًا ما يكون مغلقًا ومعبئًا بدخان

السجائر المشتعلة، وإن ذلك الهواء الفاسد لا يقل ضررا عن أشياء كثيرة يحاربونها . وإن التغيير الحقيقي يتطلب أن يتحدثوا فى الهواء الطلق، فهذا أكثر فائدة لهم وللجماهير

رد فى تهكم: جماهير من؟ أتظن نفسك فى (هايد بارك) ؟

بلا شك منيرة الآن تنزع التوكة الفضية عن ثوبها الأسود الذى أرسله خالد من اليونان. وهى تقوم بواجبها على أكمل وجه. لطمات وصراخ متقطع ودموع تغسل الوجه والآثام. هل لمنيرة آثام مثلى؟

تذكرت فتحى ورأيت أن من واجبى أن أتصل به من السنترال لأعلمه بوفاة أمه . إنه رجل المواقف الصعبة، وهو الوحيد الذى كان يزورنى فى أبى زعبل بخرطوشة السجائر ولفائف اللحم المشوى. هل غير سيارته المرسيدس التى كان يشكو من الصدأ الذى زحف لغطائها فأحدث تآكلاً يخشى معه على المحرك. يمكننى أن أطلبه الآن بالمنزل. لاشك أنه أغلق أبواب متجره، ويجلس فى الأنتريه الأبهة يراجع على آلته الحاسبة مكاسب اليوم.

أصغى جيداً لخطوات تتبعنى. هل يمكننى أن أنظر خلفى فجأة؟ هل يكون لائقًا بى أن أبدو كالمطارد؟

أتذكر معاز وهو يصافحنى لآخر مرة قبل أن يسافر إلى باريس. كان بادى التأنق. كل ما فيه ينطق بالثراء. كان يعتذر بالفرنسية وينحنى أمام النساء كجنتلمان حقيقى . ابن سعدية هل نسى أصله؟

حتى (البلمونت) و(الكليوباترا) راحت أيامها وتدلى السيجار الفاخر من ركن فمه. حين قدمنى لـ(سليا) همس لها بكلمات مقتضبة فأغرقت فى الضحك. قلت له بنصف غضب: ماذا أضحكها؟

قال بعد تردد: لقد أخبرتها بحقيقة الأمر. لقد تبادلنا الأدوار. فى الزمن البائد كنت متشدداً وأنت المارق الذى يطفئ حماستى بعبثك اللامعقول، أما الآن فقد نسيت الموضوع برمته. وأراك غارقًا فى نفس

الهموم التي نغصت علىَ صفو العيش قديمًا . بينما الدنيا طاحونة تدور ولا ترحم!

قلت له يومها ونصل سكين يحز رقبتي : أنت لم تفهمني .

كانت (سليا) كعروسة حلاوة ، لا أكثر ، هل أحبها حقيقة أم أنه يلعب معها دور الممثل الماهر مع الدمية الجميلة؟

أشعر بالخيوط اللامرئية تتحرك ، وأصابعه الماهرة تدور فى الهواء . هنا تفتح فمها ضاحكة . فى هذا الحفل العائلى تبدو منصتة لكلمات لا تفهمها . إشارة من يده تكفى .

مد أصابعه وضغط على عنقى ، كدت أختنق ، بل إننى اختنقت فعلاً ، وتحشرج صوتى . قلت له : أنت . .

ضغط أكثر ، وبدا فى الخلفية اللامعة المصقولة برج إيفل ونافورة لها حافة مستديرة ترش الماء فينبثق بألوان قوس قزح .

خفف من ضغطه : إنك قاتل .

وبدت (سليا) فى ثوبها الشيفون الوردى مثيرة للخيال ، وخارجة من بين دفتى كتاب (ألف ليلة وليلة) ، وكانت مراوح من ريش النعام بأيد خصيان تتحرك فى رقة ونعومة ، بينما البشارف تصدح والحرملك تخرج منه نسوة راقصات لهن رائحة المسك .

شممت عطرها الثمين فدوخنى . قال لى ويده تتحرك فجأة تاركة عنقى :

أنا نادم وحزين لأننى تركت السيدة زينب .

قلت له : خفف عنك . بح لى بما يؤلمك .

بكى بدموع حقيقية هذه المرة ، رمى السيجار ، وطلب سيجارة (البحارى) التى لم يكن يدخنها من الشلة إلاى . قال إنه يرفل فى النعيم وبحبوحة العيش . لكنه كالشجرة التى انتزعت من جذورها . بلا أوراق أو ثمر . قال وهو يركل أحجار البازلت فى الطرق المبتردة : لقد نزعوا اللحاء .

كنت صامتًا لا أريد مقاطعته . قال لى عبارة زلزلتنى : معاز الأسمر

الذى تعرفه مات . ذلك الرجل المتأنق الذى يتأبط ذراعك الآن هو نفايات إنسان !

كان أطفال حفاة وأنصاف عراة يمرون بنا . هتف بوجع حقيقى ، وهو يشير إليهم يلعبون (السبع طوبات) و (ركبت خيولها) : لاشىء تغير . كنت صادقًا عندما قلت لى وقتها إن عمرى تبدد فى أوهام . لكنها أيام الزهو والمعنى .

النار التى اشتعلت لم تترك سوى الرماد فى الحلوق والأفئدة .

نصف الشلة أخذ الدكتوراة فأصابهم الخرس ، يحتاجون إلى من يحل العقدة من ألسنتهم . والنصف الآخر تائه فى مفارق الطرق ، الهدف الذى حسبناه قريباً كان سرابًا !

قلت وأنا أهزه : أنت تبالغ . ماذا ينقصك . امرأة باذخة الجمال ، وحساب مفتوح فى البنك ، وودائع بالدولار ، وسفريات إلى عواصم العالم . فلماذا تثير لنفسك أحزانًا بلا معنى ؟

كان فى أوج زهوه حين عاد . ثبت القرنفلة الحمراء فى عروة الجاكتة . وسلم على بتحفظ . كان الطفل يلهو فى عربة صغيرة من القطيفة الزرقاء . عبثت بأصابعى فى شعره الأشقر . قلت وأنا أستعيد لهونا القديم : تزاوج القارات .

لم يفهم أو أنه تظاهر بالانشغال . قلت أستفزه : تحاور الشمال والجنوب على فراش الزوجية الناعم !

رمقنى بنظرة متخابثة ، ثم انتابته لعنة المثقفين . أمسكنى من ياقتى وأخذنى بعيداً عن زوجته : طز فيك ، واللعنة على الطيب صالح . هو الذى فتح عينيك على الأمر . لم يكن موسم الهجرة يصلح لأمثالى .

قدم لى عامل السويتش السماعة . أخرجت منديلى الأبيض وسعلت سعالاً جافًا . أتى صوته المشروخ : من ؟

قلت له باقتضاب : والدتك فى خطر يا فتحى ؟

لم أذكر له الحقيقة، ارتفع صوته على الخط الآخر وهو البارع فى الإفلات من مكائدى الصغيرة. كان فى غير حالته: ماذا تريدون.. نقود؟

صرخت فيه أشتمه: يا جبان. أمك ماتت.

ثم طرقت السماعة، فنظر نحوى العامل بريبة، وصرخ فى وأنا أنسق ملابسى وأستعد للخروج: ثمن المكالمة؟

يجدر بى أن أستحم الآن. ماذا كان بمقدورى أن أفعل وهى التى جذبتنى إلى حجرتها؟ كانت هاشمة برائحة عرقها ونفسها المكروش تطوقنى. اتجهت إلى الكورنيش حيث معارض الموبليات تغط فى نومها الليلى العميق. النهر يعكس الأضواء، وسواء أردت أم لم أرد فسأكون على رأس المشيعين.

برغم لسعة البرد فقد كان العرق يتفصد على جبينى. هل ستحضر عواطف؟

وهل يمكنها أن تنظر بجسارة فى عينى كما كانت تفعل؟

تقول إنها أحبتنى ولذلك تركتنى. حين أرسلت نجلاء - أختها الصغرى - ببطاقة الدعوة. ذهبت إلى حانوت (الأوركيدا) وطلبت باقة من ورد أسود لأرسلها لها ليلة الزفاف.

قال المعلم نصحى، وهو يتأملنى: ورد أسود!

قلت دون مراعاة لدهشته: ولماذا تكون أيامنا كلها سواء ولايوجد ورد أسود؟

طلب منى عشرة جنيهات. قال إنه سيفعل المستحيل ليحضر لى هذا الورد. وإن على أن أطمئن لأنه ينفذ لزبائنه طلبات أكثر صعوبة!

الأبله يظن أنه يضحك علىّ. وهل يوجد ورد أسود؟

حين قابلتنى مطلقة ومحتشمة نظرت نحوى فى انكسار. قالت إنها لم تنسنى وإنها أسمت طفلتها عزة. وستدللها باللفظ الذى كانت تدللنى به: زيزو. قلت لها وأنا أتنهد بحسرة: زيزى أليق بالبنت!

قالت إنه لا فارق، وإنها حصلت بسهولة على النفقة، فهو يدعى أنه رجل متحضر، لذلك فقد رتب لهما كل شيء. سيدفع النفقة بانتظام. وسيدخل طفلته مدرسة اللغات، وسيزورها بانتظام مرتين فى الشهر.

أخذتنى من يدى. أنظر إلى عينيها الشاحبتين. إنها لا تكف عن البكاء.

كانت تتحدث بلهجة مثيرة للشفقة والرثاء. قلت إنه لاداعى للمشاكل وإن المعروف يأسر القلوب، وإن عليها أن تعيد المياه لمجاريها، وتلم الشمل مهما كلفها الأمر! تركتها مأخوذة، ومضيت فى طريقى. كان قلبى يدمى حتى ظننت أننى أقوم بالتمثيل فى فيلم من الأربعينيات حيث الشوارع فسيحة والمارة قلائل، والباشوات متشددون فى البداية متساهلون فى النهاية ومع (تترات) الخاتمة.

لكن الأرصفة من حولى يتلون النيون فوقها، الدنيا زحام هائل، والبوتيكات مكتظة بعلب الشامبو، والأقمصة الجرسية، ومشدات الصدر، والورد الصناعى وأعواد البخور الجاوى وعلب الأناناس أعادتنى للثمانينيات.

هنا يبدو كل شيء مصنوعًا. المتعة زائفة، والزحام دليل وحدة. والأصوات العالية نبرات هشة لا تقبض على حقيقة واحدة مهما بدت ضئيلة!

تذكرت وأنا أتركها أنها اختارت وعليها أن تسدد فاتورة الحساب وحدها.

اكتشفت أننى أحمل لها ضغينة وأعاملها بتشف.

قلت لنفسى: ليكن. لقد صفعتنى هى الأخرى.

هل يمكنك يا أمى أن تصفحى عنى لأننى شرير. أنا لم أبك بعد. هل أنا ابن عاق وفاسد؟

هل هناك من طعنته الخناجر من كل صوب مثل جيلنا. هل لى بحافظ إبراهيم لأمسك بخناقه وأوبخه: الأم مدرسة إذا أعددتها.

فلماذا داست الدبابات شباباً مثل الورد كنت أراهم جالسين هنا فى مقهى شاهين يلعبون (الكومى) و(الكونكان). حملوا الشدة فى ليل دامس وذهبوا بلارجعة.

هل هو خطأ القادة أم خطيئة تلك الأم التى لاتسرح شعرها بزيت الزيتون إلا فى المواسم والأعياد؟ تنحنى لتغسل أقدام الرجال وفى الليل تنام فى ثوب (الباتستا) لتنجب ويخرج الأولاد يحملون فى صغرهم ألواح الخشب الثقيلة على أعناقهم. يلعبون قليلاً ليشبوا رجالاً ويذهبون فى طوابير مصطفة بالكاكى الميرى.

ينحرون فى المواقع التبادلية على رمل أخرس يمتص كل قطرة من دمهم!

هل أود أن أعود إلى المنزل الآن؟ إننى أخشاك يا أمى. أخشاك وأنت بلا روح كما كنت أخشاك وأنت تحركين جبالى، وتزلزلين أرضى، وتصفعين وجهى لأننى التصقت بسوسن وقبلتها فى أقصى الركن المعتم من عشة الفراخ.

يبدو أننى اعتدت أن أمضى فى الطرقات لأحدث نفسى فى هذه المدينة الصغيرة التى لها قلب عجوز. لا تعرف الراحة لأنها مدمنة للمال وعرق الصبية ورائحة الخشب الزان والسويدى والبياض، وأوامر الأسطوات.

منذ الساعات الأولى للصباح تدب الحركة فى شرايينها، ويشعل الأولاد النار، ويحركون ألواح (الغراء) داخل الأوعية الحديدية، ثم يرشون الماء أمام العتبات. ينحنى الرجال على البنوك فى الورش يعرقون ويمتصهم تعب الشغل دون أن يعنى أحد بطرح سؤال واحد يؤرقه.

كل شىء واضح ومفهوم. السراق يقطع الألواح، والفارة تشطف الخشب، والمبرد يسوى الأسطح وينعمها، والشاكوش يدق المسامير. وكتيبة الأوميجية والقشرجية والأسترجية والمذهباتية والمنجدين يقدمون فروض الولاء والطاعة للأطقم الطالعة فى جبروت وزهو. يبجلون صاحب السطوة (الجنيه)، يشترون الفيديو والسيارة والمسجل

عالى الصوت. والمعلمون كلهم حجوا البيت عشرات المرات وكل شيء في النهاية (بتاع) ربنا. فهل هناك مشكلة؟

يهزني شكرى وهو يراني أحدق في السقف ونشارة الخشب تعلو شعره: ستجن. أخرج من حجرتك تلك الكتب التي لحست عقلك.

وعلى الحائط المطلى بالجير أشعار لوركا. وأنا كفأر صغير يقرض أوراق الكتب ويضمحل جسده، يعيش في عالم من أكاذيب أو من حقائق مبتورة تودى بالنفس إلى التهلكة أو (الخانكة)!

فلا تبت يداك يا شكرى يا أخيب من فينا. بل تبت يدا كل من رأى ووعى وفي التيار انجرف يرشف من الخشاف المسكر!

كم علقة أخذتها لأنك كنت بليداً لم تنفع في المدارس. صفعات أمي، وضربات العصا الخيزران. هل ما زالت علاماتها على جسدك القوى؟

فتحي وحده الذى كان يفهمني. كان يأتي ويقرأ صفحة أو صفحتين من أى كتاب يصادفه، ثم يناقشني بلا حماس لدقائق وينزوى في ركن بالصالة بعيداً عن نظرات فودة الكريهة، يذاكر باهتمام بالغ. لن أنسى يوم دافع عنى حين أمسكوا بي في الزقاق ألصق منشورى الخاص. لقد رد اللكمة لكمتين. قال لى: اذهب أنت. ثم قاتلهم وجهاً لوجه. وحين حمله أولاد الحلال من جيراننا وأنفه ينزف صرخت أمي كعادتها، وصرخت. أشار لها أن تكف وهو محمول على أكتافهم.

قالت له وهى تبكى بدموع غزيرة: ياالله بنا على البندر!

ابتسم وهو يرمقني: لا. لقد عملوا الواجب.

يزداد طول ظلى وأنا أسير في الطريق إلى المنزل. لاصوت سوى أنين الذكريات ووجع الأيام الفائتة. وقلت له أريد ورداً أسود.

فهل تريدني أن أخلع ثوبها الحريرى الزائف الموشى بخيوط القصب لأجملها بثوبي الكتاني الفقير؟

ومن قال لها إنني أقوم بدور الزوج الاحتياطي. وهل أفل جمالها أم

أنه الحزن الذى أكل كبدها؟

لماذا أتذكرك الآن يا معاز وأنت تضغط على يدى، وتهمس لى بنبرات مغرقة فى الأسى كشهيد يسقط تواً: معاز الذى تعرفه تبدد.

ممددة هى الآن فى غرفتها، ومن حولها الصبيان والبنات الذين كبروا، وصورة الزوج الذى أحبته وذبحته ورأت أن تلومه بنظراتها الحادة، وأن تحكم بيدها الشريط الأسود. هل لى أن أصعد الدرجات وحدى؟ آن للريح أن تستكين، وقلبى الذى خفق بحب عواطف يقلب الأمر على أوجهه، وكأنه عقلى.

هل يمكنني أن أستعيدها. تلك البنت الأروبة الجريئة التى ترقص الفالس وتمثل أدواراً تاريخية بسراويل ملونة وفضفاضة. وفى الكواليس تقبلنى خلسة ثم تصيح بلغة عربية سليمة معترضة على إيماءات الوالى الخارجة وقاضى المدينة التى يعرض عليها قبول الصفقة. ثم تقبل نحوى لتصرخ فى وجهى بنفس النبرة: لماذا تأخرت؟

هل بإمكانها أن تفعل مثلما تعودت وهى ترتشف كأس الخمر (البيبسى المصبوب بعناية قبل بدأ العرض بقليل) وتغنى وهى تطوح رأسها: آمان يالاللى آمان.

حين غدرت بى قالت أمى إنها مبحوحة الصوت، وشعرها قصير ومتكبرة. سافرت إلى القاهرة، بحثت عن شىء ينسينى. وقفت أمام خمارة خلف لوكاندة البرلمان. كانت المقاعد مرتفعة وعلى الطاولة كئوس وزجاجات مرصوصة، وأمامى بعض الرجال يبحلقون فى الفراغ، بينما ترام العتبة يصر والشرر يتطاير.

قلت لنفسى: آمان.. يالاللى آمان.

تذكرت بحة صوتها وتأكدت أننى سأتذكرها الآن أكثر، سأغوص فى الوحل حتى عنقى. مضيت أتخبط بين أجساد السائرين فى شارع فؤاد. زاحمتنى المناكب وزغللت عينيَّ أضواء النيون وأجساد البنات الفارهة

المضمخة بعطور تخطف الروح. امرأة تضع فرو ثعلب قطبى على كتفين ناصعين كالبنور. كانت أجمل مائة مرة من عواطف. كتمت أنفاسى حتى لاتدوخنى بعطرها الفواح. أحسست بقلبى ينتفض لأن عواطف أدفأ وأبهى، لأنها فى النهاية حبيبتى. بيننا عمر طويل من ورود وخطابات وقبلات مختلسة، وهمس بين الكواليس، وعقود فل وريحان، ورسالتها التى وصلتنى فى الزنزانة ١٤ مازلت بنفس عطر البنفسج. هل هو حزين كما راح يتغزل فيه صالح عبد الحى وهو يهز طربوشه؟

قالت أمى وهى دائمًا تتهم كل البنات بالمروق: تلك البنت لاتنفعك إنها ترقص على المسرح.

كنت أدافع عنها دفاعًا مستميتًا. لم أقنعها أن هذا تمثيل فى تمثيل. وأننى أجرب الكتابة للمسرح. كل أعمالى رفضها المخرجون. لكننى أحاول وسأفلح!

كانت تفحمنى بردها القاطع الذى لا يعرف المداراة والمراوغة: ستتعبك لأن أمها العجوز المتصابية تضع البودرة والروج. واقلب الوعاء على فمه... أسكتها بيدى وأنا أعرف أكثر من غيرى أن عواطف لى وأنها سندى فى مشوارى. لكن الضوء الباهر الذى سقط من أعلى المسرح، من الحزم الملونة: أحمر وأصفر وأخضر لون الداخل كما لون الخارج. ليلتها قالت إنها تريدنى فى أمر هام وإن علىّ أن أهدأ وأن أحكم العقل. حين تراجعت إلى الوراء وجدتها تصعد بسرعة مذهلة إلى أعلى. الدائرة أسفلها حلزون يرفع القرص المستدير وهى غارقة فى ألوان الضوء الصاخب. صرخت. خفت عليها أن تسقط. لكنها بدت سعيدة منتشية بذلك الصعود. قلت لها اقفزى. هأنذا أمد يدى لألتقطك. كان من الصعب أن تسمع كلماتى. لذلك طلبت منه أن يرسل وردًا أسود! ●

الفصل الثالث

وكالة البلح

أترك الميدان خلفى غارقًا في الضوء المتعب الحزين، ورذاذ خفيف لمطر مرهق .أخطو خطواتى الوئيدة ثابتة وبغيضة تجاه المنزل البعيد الذى شهد هزائمى الكثيرة، وانتصاراتى المنقوصة، وأحلامى التى لم تكتمل.

هأنذا أقترب من معرض شكرى. الواجهة الزجاجية العريضة. ماذا لو ابتلع فى جوفه المعرض الملاصق كعاداتهم فى أحوال الشدة. من يوقفه غير خوفه من الحسد الذى يؤمن به، ويصنع من أجله أحجبة؟

المصحف مفتوح فى المواجهة وموضوع على منضدة لها قاعدة من الرخام البلجيكى لصالون فخم من طراز (لويس).

حين نظرت من ثقب الباب لأعرف لماذا يغيب كل هذا الوقت ارتددت فزعًا. كان يحجب جسدها الخمرى بجرمه الضخم، ويقبلها فى عنف وبوحشية مقززة بينما يده تنضو عنها ثيابها: البلوزة السادة والجونلة التويد بمربعاتها الصغيرة. كانت تقاومه بغبطة أقرب إلى الاستسلام. أعدت النظر فرأيته يلصق شفتيه بشفتيها وهى مغمضة العينين تتأوه. وطلاء شفتيها بقع حمراء على قميصه السكروتة. حقيبة يدها الصغيرة على المقعد مفتوحة ومنتهكة. أوراقها مبعثرة، ومناديلها الورقية مكومة. قطع اللبان التى أكرهها، وزجاجة رائحة ماركة (سيكريه). فكرت فى أن أحطم بقبضتى الباب، وأن أندفع لأصفعه وأجره من شعره، وأفضحه فى البيت كله.

فى النظرة الثالثة كانت تتحسس وجهه، بأصابعها الطويلة، وتقرض

بأسنانها الشبقة شاربه الكث، وهو يتنهد وقد هدأت زوبعته تماماً.

لماذا لا تأتي أمي لتلقنه الدرس الذى لقنتنى إياه؟ لماذا لا تنقض عليه لتصفعه وتجتث رجولته؟

عدت دون أن أجرؤ على النظر، والخزى يثقلنى. خمود فجائى تسلل فى شراييني. وهو الذى يرتدى جلبابه الأبيض النظيف صباح الجمعة، وطاقيته الشبيكة من الحجاز فوق رأسه، بينما يده تدير حبات المسبحة الكهرمان.

غارق فى الخجل، وأنا أعبر الطريق الضيق فى اتجاه شارعنا، وصوتها يعلو مؤنبا إياى. والرجل يرسل ملابسه بأيدى صبية حفاة الأقدام. وحقائب جلدية بها ملابسه الداخلية، وأدوات الحلاقة، وأحذيته، وفازلين الشعر، ودهان الحوت لتنشيط الجسم، وصورته أيام العزوبية مع العاهرات.

كانت زيجته الثانية، جاء كعاصفة من تراب وآلام وفُجر.

قلت لها وقلبى ينزف: لا أريده هنا.

أعطتنى ظهرها: عمك فودة رجل ولا كل الرجال!

قلت غاضباً: لا أريده.

صرخت فى وجهى: سيحضر لكم اللحم والفاكهة يا قليل العقل.

ضربت بقبضة يدى المرآة فتهشمت، ونزفت الدماء غزيرة، تساقطت دافئة على السجاد الشيرازى الذى تثنت أطرافه. بحثت عن شاش وصبغة يود. لم تجد فمزقت ذيل فستانها، وكان أبى يحب هذا الفستان. يقول لها فى ساعات الصفاء إن وروده الكبيرة ترد الروح، وإنه حين يتأمله يشعر أنه جالس فى حديقة غناء، فالبلابل تصدح والعبير شذاه يغمره.

وكانت ضحكتها ترن، وتقرصه فى كتفه بدلال: (إخصى عليك!)

فيطوقها بساعديه القويين ويجلسها إلى جواره، ومنيرة تحبو. تشد أطراف المفرش، فتنكسر المزهرية. ينقبض قلبى، ويضحك أبى ضحكته

الصافية: خير إن شاء الله.

منيرة بشعرها الأكرت تعلوه ضفيرة حمراء يقول لها أبى (تاتا) وتكمل أمى: (خطى العتبة!).

وتستند بيديها على الفوتيه، تخطو خطوتين، وأمى تصفق مشجعة. فلما غاب عن الدنيا لم تتذكر إلا لحظات غضبه، وشجاره معها. لقد انتقمت منه تمامًا حين كبرت صورته وصفدت قدميه بالأغلال، وهى تؤطره بشريط الستان الأسود.

الطبيب الذى فحصنى قال إن يدى بحاجة إلى سبع غرز. بكت وسمرت نظراتها بالأرض. النسوة مرتديات جلابيبهن السوداء الواسعة، أما أمى فكانت بتايير كحلى له فيونكة على الكتف على هيئة فراشة. وحذاؤها يطرقع كعبه العالى على بلاط المستشفى.

لم تحدثنى قبل أسبوع ولم أحدثها. كنا كالغرباء ونحن نعيش بين نفس الجدران المكلومة. تمالكت نفسها وأسرعت إلى حجرتها وعادت بمظروف به جنيهات ورقية جديدة، وضعته فوق الوسادة المطرزة بورد أصفر كريه، وجاءت بزجاجة كولونيا، وبرصة كتب تعرف أننى أحبها.

استدارت وهى تحدثنى في مواجهة النافذة: عمك فودة سيأتى بعد غد. أصبح فى إمكانى أن أرد الصفعة، وأن أنتقم لسوسن. قلت بعناد، ودمى يغلى: يأتى .. لماذا؟

قالت وقد ارتسمت على وجهها كل علامات الارتباك: أنت تعرف.

ابتلعت ريقى. الوقت مناسب كى أشدها من شعرها، وأمرغ بها أرض الحجرة.

ارتفع صوتى: لا أعرف إلا أن أبى قد مات !

أسرعت وأغلقت الباب الموارب: هو مثل أبيك.

قلت غير عابئ بالارتجاف الذى راح يهز كيانى: أبى لا يوجد مثله.

ابتسمت ساخرة، وبدأت هجومها مبكراً : أنت تذكرنى به. صورة

ممسوخة منه !شعرت بأن شكرى يتلصص كعادته. كانت الأكره تدور، والثقب فى طبلة الباب مظلم. تشجعت وهجمت دون تراجع: نعم أنا صورة منه. ولن أقبل غريبا هنا!

خافت أن يسمع الجيران شجارنا. هرعت إلى الراديو، فتحته، وأدارت المؤشر حتى صفا الصوت. كان عبد الحليم يغنى: (حبك نار).

نظرت ناحيتها وأنا أهز رأسى بمرارة: فعلاً.

صمتت، قلت وأنا أرتدى سترة بيجامتى وأستعد للخروج من الحجرة: أنا أو هو. أمسكتنى من ياقتى. نظرت إلى وجهى فى بغض مشتعل: أنت صعلوك. لا قيمة لك!

قلت: أعرف، لأننى مثل أبى.

أرادت أن تثير غضبى أكثر، تناولت المشط وراحت تصفف شعرها: ما رأيك، ألا أبدو جميلة؟

كانت جميلة فعلاً، لكنه الجمال الذابل المرتعش. ذلك النوع من الجمال الذى يلفظ آخر أنفاسه، ويعالج بالمساحيق والبودرة وخطوط الفحم والمونكير!

جميلة وتعقد إيشاربًا أخضر اللون بنقط سوداء حول عنقها: كليوباترا، وسيغرق فى عسلك كل الذكور!

قالت لى وهى تعود لغضبها بنبرة آمرة: شكرى وفتحى وخالد موافقون. قبل أن يطرق الباب صحت فى وجهها: أفلحت فى رشوتهم.

لم تصفعنى هذه المرة. اتجهت إلى الباب لتفتحه. كانت منيرة دامعة العينين تخبرها أنه جاء.

عم فودة الخزرجى. على البسطة وقف رجلان يحملان أقفاص المانجو والخوخ. أما هو فقد كان وراءهما يخب فى حلته الجديدة ببهاء مصنوع وسحنته مقلوبة.

سلموا عليه صاغرين. أما منيرة فقد التصقت بى وبكت. مد يده

نحوى مصافحًا ، تجاهلته واندفعت إلى الحجرة باكيا . مزقت كتاب الجبر الذى كنت أكرهه ولا أفهم رموزه . ومنيرة راحت تقلدنى وتنتزع شعر عروستها حتى ظهرت الثقوب فى الرأس البلاستيك المستدير .

هأنذا أقترب من المنزل . الشبابيك مفتوحة ، وصوت بكاء خفيض .

كان فودة الخزرجي يزحف بتؤدة ويتداخل كسلحفاة تسحب أطرافها داخل درقتها الصلبة . وددت أن آتى بقطعة حجر لأحطم حصنه الذى يختبئ فيه .

كان ناعمًا وثعبانيًا . أردت أن أحرمه من متعة ليست له فى ليلة خرج فيها مع أمي للتنزه . مزقت الفستان الذى كانت وروده تفرح أبى بمقص الصلب . كانت قد رفت القطع من جهة الذيل بعد الحادثة ، فبدا أقصر مما ينبغي .

عادت ورأت كل شيء ، وفوتت فرصة الصدام . تغاضت عن جرمي . أما هو فلم يلاحظ شيئاً ، وقدم ألواح الشيكولاته إلى شكرى وفتحى وخالد . تجاهل منيرة ، ونظر نحوى فى تشف . حين أطفئت الأنوار مد لى فتحى يده بنصف اللوح . قلت له : لا نفس لى .

قال يستحثنى على قبول هديته : فيها قطع بندق لذيذة .

هززت رأسي فهمس : لن أقول لأحد . هذا سر بيننا .

رحت أهز رأسي ، وصرخت فيه أننى لست طفلاً ، وهم أيضا ليسوا أطفالاً . نحن فى الإعدادية . منيرة الصغيرة التى لاتفهم شيئًا رفضته . لماذا قبلتم الرشوة ؟

نظر إلىّ شكرى الخائب ونطق كلمة واحدة : فالح من يومك !

أما خالد الذى لم يكن يعنيه إلا وجبة الغذاء وقطعة اللحم وثلث السرير فقد ضحك ساخرا : دع الملك للمالك .

منيرة وحدها التى ارتمت فى حضنى ولم تنطق بكلمة . كانت حزينة لأنها لم تعد تنام بين ذراعى أمها . قال لى فتحى : أنا لا أفهمك .

ليس بيدك شيء احسبها ثانية! وحين زارني في الزنزانة ١٤ كان قد سبقني وحصل على بكالوريوس التجارة وعمل محاسبا عانقني وكانت عبارته تتردد أصداؤها في أذني : احسبها

لم يعنفني، كانت مصر كلها تلبس السواد، وكأن أمي خلعت الشريط القديم لتحيط به الخريطة في الأطلس الجغرافي.

شد على يدى : هذه رسالة من عواطف. تجلد يا بطل.

قبل أن يغادرني عرفته بمعاز وعبد الغفار وشوقي القط وعزير حنا القبطي الذى كان يخترع نكات حول الصعايدة، وهو نفسه من (أبوتيج).

قلت له مداعبًا : هل صحت حساباتك؟.

هز رأسه متأسيًا : عمك فودة الخزرجي عنده فشل كلوى. انتظر أن أسأله عن أمي. بلعت ريقي وصمت رخامي حوطني. هل يراعي قهري في السجن؟ أود أن يغير موضوع السلامات وأسرار الأقارب المرضى منهم والأصحاء.

تصبب عرقًا وهو يخبرني من تحت ضرسه : قبل مرضه تشاجرت أمك معه، وثار عليها ولطمها أمامنا .

تابعت صمتي. كان يريد أن يفضفض عن قلبه.. أحزانه : تصور أن شكرى هو الوحيد فينا الذى جرؤ أن يتصدى له. لقد اندفع نحوه وأوقعه على حافة السرير. لكن فودة تغلب عليه، وكال له علقة ساخنة

سألته : هل كانت منيرة بالمنزل ؟

أراد أن يخفي الحقيقة : لا أتذكر.

سألته والشرر يتطاير من عيني : أسألك فلا تراوغ.

هز رأسه : كانت بحجرتها واندفعت لتدافع عن أخيها.

قلت ويدى تكاد تلوى قضبان الزنزانة : هل ضربها؟

أطرق برأسه وصمت. قلت له : سأثأر لها.

كان وجهه مصفراً، حاول أن يخفف عني بضحكاته المصطنعة يا

أخي حدد دورا . هل ستثأر لمنيرة أم لمصر ؟

تأملت كلماته ، فارتخت قبضتي فجأة ، والعصا الخيزران تهوى على جسدى فى ساحة الجامعة . كانت حشودنا تزحف . وقفنا أسفل تمثال نهضة مصر . ورحنا نهتف ، طالبنا بالديمقراطية والبنادق . إزميل محمود مختار ينحت فى قلوبنا تمثالاً من الجرانيت الوردى الصلد .

الدباشك الخشبية راحت تكسر عظامنا ، والقنابل المسيلة للدموع تحيل المنطقة إلى دخان يعمى الأبصار . وأجساد تركلها الأحذية الغليظة .

الصمت المريب على الجبهة عصف بنا . ياله من انتظار مر مهين . ترك لنا عميد الكلية الفرصة لنفرغ غضبنا فى مجلات الحائط . ولما تمادى رسام الكاريكاتير ، وصورَه قابضاً على عصا الجوزة اعتقلوه !

حين بدأ التحرك انهالت علينا الضربات . كانت البنات فى القلب . نحميهن بأجسادنا . أرى عواطف ببلوزتها الفستقية كزهرة برية ندية ، تلوح لى بيدها ، وأنا فى المقدمة بينما خوذ الأمن المركزى تصنع شبه حدوة ، وتضغط بضراوة . تنهال على جسد معاز الضربات . تتحطم ساعته تحت الأقدام ، يعثر عليها بصعوبة بلا عقارب . الدم يسيل : ما معنى الزمن هنا ؟

قال عبد الحق الصريطى : اضربوا .. اضربوا .. يا جبناء .. الأعداء على القنال . جذبوه من ملابسه وأوسعوه ركلاً . طوقونا وحاولوا إرهابنا بالطلقات الفشنك . فوق مبنى اتحاد الطلاب راح الزملاء يمطرونهم بالحصى والطوب . كان العسكر يندفعون فى تشكيل قتالى : هم .. هم .. هم . يزومون ونحن لا نتراجع . قال فتحى : خالد يفكر فى السفر إلى اليونان ، وأملك لا تمانع .

هززت رأسى مؤكداً : طوال عمره يشعر أنها ليست بلده ! مأساة مضاعفة . طلبت من الحارس كوب ماء . ذهب إلى آخر الطرقة وفتح الصنبور . انساب الماء ، وشرب مرتين . أتى بالكوب المعدنى ممتلئًا حتى الحافة . كنت قد سربت رسالة لها .

باب الشارع موارب. لاحس ولا حركة، وكأن الموت يجثم على الأنفاس بالفعل. يقولون إن الموتى يتركون أرواحهم تهيم فى الأمكنة التى يحبونها قبل أن يُدفنوا. قط أرقط فى بير السلم نظرته مسددة نحوى. لم يخف منى بل ظل يرقبنى دون أن يطرق له جفن.

قط أرقط فى العتمة بينما النحيب يتناهى إلى سمعى. أخرجت علبة سجائرى، وجذبت سيجارة، وضعتها فى فمى. لاحظت أن ريقى جاف. بللت بصعوبة طرف الفلتر بشفتى الجافتين. راقبته فلم يتحرك. لست بخائف. فقط لم أكن فى حالة نفسية تسمح لى أن أقاومه.

أشعلت سيجارتى وعدت إلى الشارع، استندت إلى سيارة شكرى (الفيات)، سحبت نفسًا طويلاً. كيف أنجبت أمى كل تلك الأجساد القلقة التى تحمل أرواحًا معذبة؟

حين سافر شكرى إلى بلاد النفط تعاقد مع أمير منهم كى يؤثث له قصره: حجرات النوم والسفرة والصالون على أحدث طراز.

كان يتفاخر بذلك، ويرسل صوره وفوق رأسه (الغترة) والعقال. فى خطاباته لم يعد يتحدث إلا عن فرق العملة بين الريال السعودى والدينار الكويتى والدولار الأمريكى.

كان يحدث أصحابه كلما أتى فى إجازته عن مغامرات لا أصدقها مع فتيات فلبينيات، وعن مباهج الإقامة فى دول ترفل فى الثراء.

حين نزل إجازته الأولى فتح الحقائب وأخرج زجاجة عطر (بروفسى) وساعة إلكترونية ونظارة شمس ثمينة، وبلوزة «منتوجت» فى كيسها البادى الأناقة، وأخفى فى القاع وهو يغمز بعينه اليسرى شرائط الفيديو الممنوعة.

قال لى: حاجة بسيطة. هدية لك!

واجهته بصرامة: ماذا أخذوا منك ليعطوك هذه الأشياء التافهة؟

بلع ريقه: ماذا تقصد؟

سددت سهامي إليه مباشرة: بعت عرقك لمن؟

نظر إلى بغرابة: أنت أنت. لن تتغير. ستعيش في الوهم وتموت في الحرمان.

قال فتحي: صلوا على النبي يا جماعة.

قاطعته: لابد أن يفهم. قال بصراخ لم يستفزني: أنت تحقد على.

ليس لديك رصيد في البنك، ولادفتر شيكات. ستظل طوال عمرك تتعامل مع الملاليم!

قلت له وأنا أقلب كلماته على أوجهها: هذا أشرف لي.

انتفض وبنبرة عنيفة راح يلومني: لم أسرق. هذا المال وتلك الأشياء من عرقي. قلت وأنا أركض في سراديب معتمة بينما الوطاويط تطاردني في إصرار:

لكنهم سرقوك. أنت ربيب الأمراء، تخلع القميص والبنطلون وتضع على رأسك العقال تملقا لهم. قال يؤنبني: لم تكن إلا صورة تذكارية.

قلت بلهجة غاضبة: ولحيتك التي صنعت مع الشارب دائرة محكمة حول فمك حتى لاتتكلم إلا بما يرغبون؟

نظرت إليّ أمي نظرة مفعمة بالرثاء: دع أخاك في حاله.

قالت منيرة: لاحق لك يا عبد العزيز. اقبل هداياه ولا تغضبه.

كان فتحي يتفحص كومة أشيائه بفرح. سأله: أليست معك آلة حاسبة تعمل بالبطارية؟ مد شكري يده وبحث بأصابعه ثم أخرجها وهو يطبع عليها قبلة لإثارتي: هي لك، ليست خسارة فيك.

البلوزات الحريرية وقمصان النوم الزهرية، وإيشاربات مطرزة بورود، ومفارش، وملاءات أخرجها، ومالبث أن وضعها بين يدى أمي ومنيرة.

قلت له وهو يتفحص أجزاء الخلاط: معك حق. عالمك غير عالمي.

نظر إليَّ في ود مفقود: لماذا تحارب العالم وحدك؟ إنهم يقيمون عمارات هائلة من الرخام الإيطالي، وسيارتهم فارهة. التكييف في كل

مكان. المال بلا حدود. وأنت هنا غارق في دائرتك المغلقة صريع كلماتك الطنانة وعباراتك التي تلتف حول عنقك.

هل قال تلك العبارات فعلاً؟ هل واجهني بنقطة ضعفي سافراً؟ هل معه حق؟ أم أنه الأحمق الذى باع نفسه بثمن بخس؟

قلت بأسى، وأنا أتجه نحو الحوض لأغسل وجهي الملتهب: معك حق.

قال وهو يأخذني من يدي: معي الكثير. هل أنت في حاجة إلى مال؟

قلت: ليس المال ما أبحث عنه.

كان يتنفس بصعوبة وفي صوته حشرجة. هل أنت متعب؟ لماذا لا تستجم في رأس البر؟

قالت منيرة لتحول الموضوع الذى يقتطع من لحمي بسكين ثلم: لقد أرسل خالد خطاباً، وهو يعمل بحاراً على سفينة يونانية تجوب بحر الشمال.

قلت: بحر الشمال أو البحر المتوسط. تلك ليست القضية.

قالت أمي وهي تضعني في مواجهة ذاتي: ماالقضية إذن؟

بدا السؤال كحربة تطعنني. حربة مسددة طيلة الوقت إلى صدري. نهضت، وألقيت بالسيجارة التي أشعلتها منذ ثوان: القضية أننا مدانون.

خرجت من الحجرة ثائراً. سمعت منيرة تقول لهم: تحملوه فهو يمر بظروف نفسية صعبة.

هززت رأسي. حتى لو وجدت القط الأرقط فسأصعد. سوف أصارعه وأخنقه وسأعامله بكل فظاظة ولن يغضب ذلك أبا هريرة فهو يعلم أنه ينوى الشر.

وسألقي نظرة على جسدها، وأغطي الوجه، وأرقب قبل ذلك ملامحها. هل هي غاضبة مني أم أنها باتت تتلمس لي الأعذار؟

صعدت ورائحة عرقها يصحبني. تنهدت هاشمة وأودعتني سرها. نعومة بشرتها لم تخفف من خشونة طبائعي. هل أنا مريض وأحتاج إلى علاج ومهدئات؟

يومها دخل فودة الخزرجي ورأى الحقائب والمفروشات والهدايا التي تخطف الأبصار. احتضنه بلا حرارة كتحصيل حاصل وهنأه بسلامة العودة. قال شكري: كيف حالك يا عمي؟

جلس فودة إلى جواره: أحوال الوكالة ليست على ما يرام. لماذا لا تقنع فتحي بأن يشرف على حساباتي؟

عدت صامتًا وجلست بحيث تحاشيت النظر في وجهه مباشرة. عادت أمي وقد ارتدت عباءة مطرزة بورود سوداء تلمع.

انتفضت محدثاً نفسي: تلك الورود التي كنت أريدها لعواطف.

لم يلحظ أحد اضطرابي. ضحكت هاشمة وهي تعلق على كوني مدرس فلسفة: أنت إذن صديق أرسطو.

سألتني وهي تبخ عطراً خاصًا نفرت منه: هل يمكننا أن نقيم جمهورية أفلاطون يا أستاذ؟

قلت لها، وعقلي شارد: علينا أن نقيم جمهوريتنا الحرة ذات السيادة أولا يا آنسة!

قالت وهي تضغط على يدي، بينما دمها يشخب داخل عروقها: نقيم جمهوريتنا هنا قبل أية إجراءات أخرى. مارأيك؟

قلت لها وأنا على حافة البكاء: إن اللواري التي اختفت خلف النواصي نزل منها العساكر متراصين في صفوف، وقد هجموا علينا وأحكموا الحصار. وإن حناجرنا بحت ولم نحصل إلا على صفعات، ورسبنا سنتها في الامتحانات.

رفض عميد الكلية أن يقابلنا وأصدر قراراً بحرماننا من دخول السرادق الذي نؤدي بداخله امتحاننا النهائي. ادعى أننا استنفدنا فترة الغياب المسموح بها.

اقتحمنا المكتب بعد مناورة محكمة. قال له معاز إننا كنا في مأمورية غير رسمية من أجل الوطن.

دار بمقعده الجلدى الوثير . ونظر إلى الصورة خلفه أنا عبد السميع حين رفضنا الخروج إلا بقرار يسمح لنا بدخول الامتحانات . مد يده خفية وضغط الزر، ودخل السعاة ومن خلفهم رجال الأمن . جذبونا من ملابسنا . قال وهو يغوص في مقعده مخفيا توتره : خلوا الوطن ينفعكم '

قالت أمي وأنا أعود بحقيبتي وشعر رأسي الحليق وخيبتي الله يخرب بيت السياسة .

الوحيدة التي ضغطت على يدى ممتنة وتفحصتني بفخر كانت منيرة . أعطتني من نقودها لأشترى علب سجائرى .

بينما تاجر وكالة البلح الذى دخل بيتنا بأقفاص من كل نوع وصنف . حرم نفسه تماما من فاكهة الصيف والشتاء . كان يدخل ويخرج وهو يرمقنى فى تشف كفأر فى مصيدة : مصطفى النحاس حضرته ؟

قالت أمي تدافع عنى والباب مغلق : طيش شباب .

ارتقع صوته : ألم نكن شبابًا . هى خيبة ثقيلة وعنطزة فارغة

قبل أن يصمت زلزلنى بجملته وشعرت بدمعة تنحدر . قال الخائب خائب من يومه .

وهى لم تعلق سوى بكلمتين : حظه سيئ !

بل هى أقدارنا . الوطن الذى داسوا بنيه بدبابات «الباتون» دون أن يملكوا حق الدفاع عن النفس . حظائر الطائرات التى دمرت ، والكبارى التى قصفت ، والنابالم الذى أحرق مواقع المشاة . وأحال مواسير الـم / ط إلى قطع من الحديد الخردة . إن الأساطيل التى تصدى لها محمد كريم فى الإسكندرية تعاود الوصول وصب نيران مدافعها على بيوتنا

تلك القذائف سحقت قلبى ، وجاء الغزاة وسرقوا من مقابر بنى حسن أسرار الأجداد الملونة . من لى بسوسن لأعتذر لها عما حدث وأقبل رأسها فى إجلال . أطرق باب الشقة ودمعتان على الوجنتين وحرقة بالقلب ! ●

الفصل الرابع

فى الممر

زوجة خالى وصفى هى التى فتحت لى باب الشقة، كانت تنتعل شبشبًا خفيفًا لكنه يصدر صوتًا غريبًا، وكأنك تسحب امرأة بدينة على بلاط مُتعرّج وهى تقاومك.

حين وجدتنى فى مواجهتها شاردًا، انفجرت فى البكاء. قالت لى ودموعها تنحدر: عنايات يا حبة قلبى راحت!

جاء شكرى يستفسر: ماذا أخرك؟ انتظروك فى السيارة طويلاً!

قلت له وأنا ألهث من الإرهاق: كنت أحدث فتحى بالتليفون.

ضرب رأسه بقبضة يده، فشعرت بالانقباض أكثر: كدنا ننساه. أحسنت صنعًا. لكن هل وجدته بالمنزل؟

كان يواصل الاستفسار تلو الاستفسار وأنا مستند إلى الباب ودون أن أدخل. أفسح لى الطريق فانهبدت على أقرب مقعد. نظرت بطرف عينى فرأيت النسوة جميعهن فى الحجرة الداخلية. أتساءل عما عساه يطلب منى وهو الآمر الناهى فى تلك اللحظات الفاصلة. لن نتمكن من الاتصال بخالد، وسيكون مضيعة للوقت أن نبحث عنه بين الموانئ.

قالت الحاجة محرومة وهى تستعد للدخول إلى الحجرة المكتظة: هل أجهز لك عشاء؟ كل ما كنت أتمناه أن أخلو بنفسى قليلاً وأفكر فى أشياء كثيرة أثارها داخلى هذا الموت المفاجئ.

هززت رأسى شاكرًا. كنت مجهدًا بالفعل، خائر القوى. وتلك السيدة التى تعاملنى بكل هذا الرفق كم كرهت أمى وتشاجرت معها.

وسعت إلى إحداث قطيعة بين زوجها الحاج وصفى وبين الراحلة.

مازالت تحمل فى عروقها دماء ريفية من شط جريبة. سعت جدتى لمصاهرة تلك العائلة ترقبًا للخير العميم، وأنهار العسل والحليب أسراب البط المرجان، الديوك الرومية، فطائر معجونة بالمسلى البلدى، والخبز الفلاحى المستدير الذى يملأ العين.. الفارغة! لكنها حجبت بعد عام من الزواج تلك النعم، ورفعت عصاها فى الوجوه، وضعت خالى فى قبضتها، وصارت هى الآمرة الناهية. ورأت أن إنجاب الأطفال مهمة مقدسة بالرغم من عودها البوص الذى جاءت به.

أنجبت حسيبة وكريم وأميرة وفايز ومنى وختمت بباسم. كل ما استطاع خالى أن يفعله أنه تعلم منها اللؤم. وحين ماتت جدتى وتركت المنزل كان يأتى بصوانى الهريسة والبسيمة وأقراص المشبك واللديدة والفولية، ويعطينا (الشلن) و(البريزة) وهو يطبطب على أكتافنا ويبتسم لنا، وزوجته تجرجر بناتها وبنيها، وتدعو لأمى بطول العمر، وتطرى جمالها الذى تدفنه فى الأسود بعد أن مات أبى حين مرض مرضه القصير. كان صوتها هو الذى رن بصيحة بومة مرعبة أوجعت قلبى، وهو ينازع الموت ثم يسقط تحت قدميه.

قالت لأمى قبل أن تتزوج فودة: الزواج للأرملة ستر وغطاء.

زينت لها الأمر، وأشارت عليها أن تبيع نصيبها فى البيت لتوسع على الأطفال، وتشترى لنفسها فساتين وأساور ذهبية وبياضات للأنتريه وستائر. صحبتها معها إلى السوق واشترت لها عدة أطقم من الستان والشيفون والحرير الطبيعى، ودم أبى لم يبرد!

جلست على ماكينة الخياطة تدير بيدها القرص المعدنى والأولاد يقفزون على الأسرة والمقاعد، يأتى صوتها نحيلاً: عيب يا أولاد. (طنط) تزعل!!

من أين عرفت تلك الفلاحة (طنط) هذه، وهى التى لم تركب من وسائل المواصلات سوى الحمار، ولم تسافر لأبعد من عزبة اللحم؟!

شعرها باهت ومنكوش، ونظرتها تعسة وشريرة. قالت لأمي: هيا بنا. المحامي في الانتظار. ستوقعين الأوراق وستقبضين الثمن فور التوثيق بالشهر العقاري.

توجست أمي وبدت مترددة، حسمت تذبذبها: هداية أقنعتها وستبيع معك أما نوال فرأسها كالحجر. سيقع البيت ولن ينوبها سوى تراب النقود.

كنت صغيراً حملتني: سأشترى لك لعبة. أما شكرى فقد كان يلعب مع البنات في السطح كعادته لعبة (الاستغماية) بين الكراكيب والمقاعد القديمة المقلوبة وقوالب الأحذية التي بطلت موضتها. يختبئون، وأجلس وحدى على حافة السور، خلف الألواح أنظر إلى السحب الشاحبة وهي تفر.

كان فتحي كعادته منكبًا على مذاكرته، وأوراقه، ودفاتره التي لا يمل التحديق فيها.

غابت أمي كثيراً ورأيت شكرى يمشط شعر حسيبة ويضفره أمام المرآة. حين رأيته كان يمد ساقه وهي تجلس أمامه هادئة مطمئنة، والأولاد يحضرون قارورة زيت الزيتون ويضحكون. قلت له: سأقول لأمك.

قال لي دون أن يطرف له جفن: تعال أمشط لك شعرك!

اندفعت نحوه أضربه، وهو الذي ضربني، وجاءت أمي ورأت الدم يخر من بين أسناني فأحضرت العصا وضربته ضربًا مبرحًا، وضربتني ضربًا خفيفًا.

أما الحاجة محرومة فقد راحت تمنعها وتخفينا تحت السرير: ادخلوا يا أولاد!

وحين اختل توازن أمي وهي تعبة، أجلستها على مقعد بالصالة وجاءت بمروحة قديمة من درج علوى أشارت له يد أمي وراحت تحركها يمنة ويسرة.

قالت لها: اشترى كل ما نفسك فيه. ماذا كنت تفعلين ببيت قديم؟

قالت أمي وهي تراجع نفسها بندم: الأسطى إسماعيل سيغضب.

تناهى إلى صوت الحاجة محرومة كالفحيح: يغضب. لماذا؟ أليس الأمر بيع وشراء؟! ماذا يريد؟ ينهبكم؟

وكنت أحب الأسطى إسماعيل. أذهب إليه في محل الترزى، يرفعني بيديه إلى البنك يسألني: اختر القماش الذى تريده وسأفصله لك.

أشير بيدى الصغيرة وينزلني. ينحنى ليرفع ثنية البنطلون. يحرك (المازورة) ويأخذ مقاس الوسط والركبة والفخذ. يرسل الصبي مندور ليشترى لي (كوز ذرة) ويحدثني عن المرحوم الذى غدرت به الدنيا: أبوك كان رجلاً!

فهل سيغضب الأسطى إسماعيل. وماذا أقول له لأدارى ما فعلته أمي؟

خرجت إلى الحجرة المجاورة. إنها تحتاج في نومتها إلى الهدوء وإن البكاء واللطم قد تحول الآن إلى ثرثرة عن وقائع قديمة، وتعديد فارغ.

قلت لها: الأمر بيدك. لا يمكنني التحدث معهن.

ثم إنها طلبت منهن في أدب أن يخلين الحجرة لأن المغسلة في طريقها إلى البيت.

كانت تكذب لأن أحداً لم يتصل بها بعد. وكان رأى عبد السلام أن الصباح رباح وأنها لن تأتى لأن الدنيا لن تطير، والجو ليس حاراً بأى حال. وهذا من نعم الله علينا.

جاءت نوال الآن فقط من السويس، اندفعت إلى السرير، قبلتها، فاهتز السرير. كنت قد اتصلت بها بعد أن نقلناها إلى المستشفى. أزاحت الملاءة البيضاء حدثتها وكأنه تسمعها: وجهك منور يا غالية.

ثم إنها سلمت على النساء واحتضنت معظمهن. أما أولئك اللائى تحمل لهن خصومة فقد جاء سلامها خاطفاً وفاتراً. وكأنها تملك ذاكرة حديدة لا تخطئ قط.

قالت لي وكانت تعزني: كيف حالك يا عبد العزيز؟

قلت وأنا مرهق ومغتاظ: الحمد لله.

أخذتنى من يدى إلى الشرفة فى حجرتى: أريدك.

حدثتنى عن القسمة والنصيب، وأنها وجدت لى بنت الحلال التى تنفعنى.

قلت لها: إننى لا أفكر فى الأمر. وسأعيش فى الدنيا بطولى.

قالت وهى تتحسس المكان لتستند على إفريز الشرفة العريض: دعنا نتكلم بهدوء.

كانت زيجتك الأولى فاشلة بكل المقاييس لأنك لم تستشر أحداً. احمد الله أنك لم تنجب سوى طفل واحد.

قلت وفى صوتى ظل وقاحة: تراث العائلة. ألم تتزوج أمى مرتين؟

قالت بنبرة أقرب إلى اللوم: المرحومة أخطأت، ولا مجال لإعادة الماضى.

نظرت إلى حشودهن بملابسهن السوداء: قطيعة، لا يعجبنى هذا المنظر. والله ما لبست الأسود إلا مرغمة. هل هناك من كان يحبها مثلى؟ هل هناك من تصدى لكل أخطائها كما فعلت؟

قلت وأنا أعترف لها بالحقيقة: لكنها لم تكن تحترم سواك من النسوة. ولم تكن تخشى من الرجال إلا الأسطى إسماعيل.

هزت رأسها وهى تحملنى إرثها من اللوم والتأنيب: لذلك فقد باعت للذى لا يستحق. ضحكت الحرباء عليها بالكلام المعسول.

قلت وقد أسعدنى أن يتحول الموضوع إلى الماضى: صدقت. كيف حال أولادك الآن؟

ضحكت فى منديلها الأسود: حالهم لا يسر عدواً أو حبيباً. الصبيان غارقون فى الكرة، والبنات فى أغانى الكاسيت التى تصدع الرأس. ولكن الحمد لله. لم يطلع فى قرعتى من أضاعته الكتب مثلك.

قلت ورضا غريب يشملنى: الكتب هى التى أضاعتنى أم أمى؟

قالت بلهجة أقرب إلى الاحتجاج : أنت الذى لم تفهم الدنيا . أمامك شكرى عنده عماراته ومعارضه . وفتحى لديه متجران وتوكيل سيارات . حتى خالد الذى لم نكن نحسبه من العائلة قلنا إنه لن يفلح ، وها هو فى موانى أوربا . أخرجت من حقيبة يدها بطاقة ملونة : أرسل لى فى عيد الفطر ذلك «الكارت» من «مرسليا» .

ضحكت وأنا أستفزها : بينكما ود قديم . ألم يهرب عندك مرات ومرات .

خاله الحاج وصفى أرهقه بحمل ألواح الخشب حتى طفش واختبأ فى دولاب ملابسك . ضربتنى برفق على ساعدى : ألا تنسى شيئًا ؟ لا تهرب منى . ما مواصفات عروسك ؟ قلت وأنا أطرد وساوس قديمة وأزيح بقدمى بعض البقايا من خزف محطم وبقايا ورق قديم مهمل وصراصير صرعى بالمبيد : لا مواصفات . لأننى ببساطة لن أحاول ثانية .

أطلت منيرة بوجهها الشاحب المتعب . قالت : عما تتحدثان ؟

أشارت لها أن تدخل وتغلق خلفها الباب . لم تعبأ خالتى نوال باعتراضى .

كانت تحاول أن تنقذنى من دمار يلحق بى . تراه بعينين ثاقبتين ، وكنت أتحاشى إغضابها . قلت لا ، ليس هذا وقته .

قالت وهى تقاطعنى : عبد العزيز العمر يجرى به . وهو فى حاجة إلى من يرعاه .

وجدتها منيرة فرصة للولوج إلى حقيبة أسرارى السوداء المغلقة .

قالت وقد ومضت فى ذهنها الفكرة : ما لها أميرة ؟

كان المغص يمزق أحشائى . قال عم فودة الخزرجى : عد إلى البيت ، واعمل لنفسك كوب سكر وليمون .

بحثت عن فتحى فرأيته يلعب كرة المضرب مع صديق له . سألته : أين شكرى ؟

مط شفتيه وهز كتفيه لأعلى، واستمر في مطاردة الكرة.

سرت بقدمين حافيتين على الرمال الساخنة أدوس الأصداف الهشة وأسمع لها صوتا حزينا مكتوما.

صعدت الدرجات الخشبية. كان باب العشة مفتوحا، وعارية الصدر رأيتها، كان يعطى الباب ظهره، كعادته التى لم يتخل عنها، وكانت تضحك وتأمره أن يكف عن العبث بأشيائها. لم أتراجع هذه المرة. ولم أتقدم. وقفت مذهولاً فى منتصف الحجرة، وحين شعرا بى. أدخلت ثدييها فى طوق المايوه النبيتى. كان يلهث، عارى الصدر وحول عنقه سلسلة فضية تنتهى بحدوة فرس صغيرة. تلجلجت: هو الذى أتى بى إلى هنا. أنت تعرفه.

وكانت بالأمس تمسك يدى وتسير معى على اللسان الصخرى، ورشاش الماء يضرب وجوهنا، وهى تضحك نفس الضحكة، وشعرها يتطاير فأستنشق عطره وأشعر أن السعادة التى تخصنى لا يمكن وصفها. كدت أقبلها فخجلت وهى لم تقبلنى رغم أن الظلام هبط علينا فى العودة، فقد كانت تقطيبة الحاجة محرومة تمنعنى.

اندفعت أميرة إلى الشاطئ. أما هو فقد ظل جالسا يتأهب للمنازلة التى لم أكن مستعداً لها. كان وشيش البحر يصلنى. تركته وكان المغص الحاد الذى أتى بى قد تضاعف. فجأة تقيأت، وتعبت. وقف خلفى مرتبكا. قال بنبرة فيها شىء لم آلفه من الاعتذار: أنا أحب أميرة، وهى تحبنى. وسنتزوج عندما تحين الفرصة.

قال: هى التى أتت. وتكررها فى كل مرة تخرج الأسرة للشاطئ.

أردت أن أصفعه: أنت الذى أغويتها.

كنت أغالب الضعف الذى شعرت به فجأة: وماذا لو عرف الحاج وصفى؟ حتى ابنة خالك لا تتركها لحالها؟

أشاح بيده فى وجهى: قلت لك حب. ألا تفهم؟

قاطعته بحدة: والحاجة محرومة. أتعلم بهذا الحب؟

عصرت حبتين من الليمون فى كوب ملىء حتى نصفه بالماء، وازدردت القشر.

قال الحاج وصفي ومن خلفه أولاده وهم يعودون بعد الظهيرة: كيف الحال؟

قلت وأنا أضغط على الحروف: من سيئ إلى أسوأ.

تركنى ودخل إلى الشقة البحرى. أما زوجته فقد سألتنى بخبث لا يعرفه أهالى شط جريبة: الوجع خف؟

قلت وأنا أتطلع إلى زهرة وجدتها داخل كتاب لى، ذابلة، أفركها بأصابعى وأذروها فى ريح واهن لا يحملها فتسقط الذرات تحت أقدامى: المشكلة ليست فى الوجع. الألم الآن ليس فى بطنى.

قالت وهى تضحك: الحمد لله. مادام الألم راح فستخرج معنا للنزهة على النيل مساء.

قلت لها: هذا يتوقف على حالتى.

كانت أميرة تجلس بجوار الباب تحدق فى وجهى بطريقة غريبة وكأنها تتوقع منى الشر.

قالت: سلامتك.

دخلت أمى بعد أن رصت المقاعد فى الفراندة، وأمالت الشماسى على الحائط: الليلة نحتفل بعيد ميلاد أميرة.

قلت لنفسى: ولماذا الليلة بالذات؟ يبدو أنها تحتفل بعيد ميلادها على طريقتها، جاء فودة الخزرجى يلهث ويداه تحتضنان البطيخة النمس، راح يضربه بكفه ويتفحصه. استفزنى صوت شكرى وهو يعلق: أراهن أنها حمراء.

فى تلك اللحظة بدا لى خالد بصمته كإله إغريقى قديم يرمق الكون من عل بانتباه ويقظة ودونما تعليق. احترمته احتراما لا يمكن وصفه. ورأيت

فتحي بعينيه المركزتين على أوراقه وأرقامه إنسانًا طيبا لا يؤذى ذبابة.

أما شكرى فقد كان يدنس كل شيء نبيل. لم أكن أكرهه لأنه فعل تلك الخطايا فى مواجهتى بقلب ميت وعقل بارد، بل لأنه يمثل لى الأشياء الجميلة التى تنتهك فى المنحنيات الخلفية، وعتمة الغرف.

هزتنى منيرة وهى تكرر سؤالها الذى جعل أذنى تلتهب، وصدرى يعلو ويهبط: ما رأيك فى أميرة؟ إنها حصلت على ليسانس الآداب فى العام الماضى وستفهمك. ضحكت خالتى نوال: الحقيقة لا يفهم أخاك سواى. إنه فيلسوف العائلة الذى أتعبنا.

كانت المشاهد القديمة تهزنى، وجدتنى داخل ممر طويل معتم. يتسلل إلى روحى هدوء غريب مصحوب بانتشاء مفاجئ. لا أفعل شيئًا فى مواجهة طوابير النمل التى تتحرك فى كل اتجاه. لا أفزع للظلمة والممر لا ينتهى.

أشعلت أصابعى بعود ثقاب فبان الوهج وأحطت خصرها النحيل بيدى الأخرى. كانت تقبلنى فى نهم وتنظر إلىَّ بعشق مشبوب. لها خطوات هاشمة، ورائحة سوسن، ونظرات عواطف الخاطفة، وضحكات نشوى الصافية، وقبلة منى التى لا أنساها.

أعرف أن خالتى نوال هى الوحيدة التى تزوجت عن حب، وأنها عاشت فى السويس مع زوجها الذى يعمل بالبحر. حين انكسر جيشنا فى يونيو الحزين، وراحت الطائرات تقصف مصفاة البترول فى الزيتية، وتناثرت الجثث على الأرصفة ومعها كل الأحلام الحلوة. أخلت الحكومة المدينة من سكانها وشيعتهم إلى القرى والمدن البعيدة عن أخطار القصف. عادت خالتى نوال ثانية إلى مدينتها التى هجرتها لأنها أحبت.

عرفت منها معنى القطيعة مع الأهل. كانت تكشف لى عن ظهرها وترينى كدمات زرقاء ورضوض وبقع متورمة. يصلنى أنينها فى الليل وزوجها الذى يأتيها كل خميس وجمعة صرت لا أحبه.

قالت إن الحب ليس كل شيء في الدنيا . هناك أشياء لا نفهمها إلا بعد أن نكتوى بنارها .

كانت تفرد جناحيها في الأيام الصافية البرئية ، تكاد تطير مثل طيور بحرية بيضاء ناصعة كنتف ثلج .

تقول لى إن البنات كالفراشات يعشقن الوهج ويحترقن فى الضوء يقتربن وهن يدركن المصير الرهيب الذى ينتظرهن .

تضع إصبعها المطلى بالمونيكير فوق فمى . تقول لى إننى محظوظ لأننى خُلقت ذكراً . كانت تقول لى إن الذكور ليسوا أحباب الله لأنهم يضربون الزوجات ويعاملونهن أسوأ معاملة . وإنهم صائرون إلى الجحيم لولا شفاعة الأمهات .

كانت تتحسس أماكن الضرب وتقول لى إنها أحبته وباعت أهلها من أجله ، وعاشت معه أربعة أشهر فى سمن وعسل ، لكنه تغير بعدها كثيراً ، وامتدت يده ومن يومها لم تقصر .

كانت تقول لى إنها لم تبح لأحد بالسر ، وإنها لا تريد أن يشمت فيها أحد . وإنها اختصتنى بسرها لأنها تعتقد أننى كبير . كنت أغطى أولادها بالبطانية وأقبلها وأمضى إلى سريرى فى شقتنا العلوية . فى الصباح أحمل ولاء وسمر وسعيد وأشترى لهم من مصروفى القليل خد البنات وبراغيث الست . كانت تفرح لذلك وتقول لى : إن العائلة لم تنجب رجالاً بمعنى الكلمة إلا الأسطى إسماعيل وأنا .

كنت أغلق الباب العتيق ، وأدوس بلاطات الشارع بزهو وكلماتها تعلق بذهنى . لا أعبأ بالوحل ومياه المطر . أذهب وحدى إلى محل العطارة وأطلب شراب العرقسوس الذى علمتنى كيف أنقعه وأشربه مثل خالى الأسطى إسماعيل الذى كانت له هيبة ، وفى حضوره وقار لكنه كان فقيراً ، ليس عنده معارض بواجهات زجاجية عريضة مثل الحاج وصفى الذى لم يعط أحدنا قرشاً واحداً منذ اشترى البيت يأتى

الحاج وصفي ليزورنا وسعاله المشروخ يفضح مرضه الذى يداريه بالبرشام والحقن كل ثمان ساعات فى الوريد.

قالت أختى منيرة: أعرف أن هذا ليس وقته. لكننا قليلاً ما نتلاقى ونوال عندها حق.

تحت بسطة السلم كانت الظلمة خفيفة. قالت لى «منى» إنها لم تعمل الواجب، وإنها خائفة من أمها. قلت لها صادقًا إن الحاجة محرومة لا تحبنى ولا أحبها. لكننى من أجل خاطرها - هى - سأعمل لها الواجب.

جلسنا القرفصاء بعد أن أتت لى بالحقيبة الجلدية، وجعلت أحسب لها وهى تكتب وحين انتهينا مالت نحوى وقبلتنى قبلة عذراء!

أما أميرة التى رأيت صدرها الناهد فى غرفة الصالة المعتمة فقد بت أخشاها، وحين أرى حسيبة أشعر أننى أمام غفير يحمل عصا غليظة. منى هى التى كانت تأتى لى بحبات الخوخ والمانجو، وفى رمضان تمد لى يدها بقطعة قمر الدين.

بعد أن باعت أمى نصيبها فى البيت حزن الأسطى إسماعيل منها ومن هداية. لكننى عندما أزوره يذهب بى إلى سوق الحسبة ويشترى لى اللعبة التى أبكى من أجل أن أحصل عليها. يقول لابنه عندما يطلب لعبة أخرى: اسكت يا ولد.

ثم يهمس فى أذنه بكلمات قليلة ويعود ليهش فى وجهى. كان يقول لخالتى نوال:

عنايات فرطت فى النعمة بزواجها من فودة الخرزجى لأنه فظ وغليظ.

الأولاد كالنبت الأخضر الطالع تفسده تلك النظرات الحانقة التى أراها فى عينيه. حين اعترض على الزيجة جاءه فودة وأقسم على المصحف أنه سيعاملنا أحسن معاملة. وجاء وراءه الرجلان بالأقفاص

الممتلئة بالفاكهة، وأقسم خالى بالشلل على نفسه وعلى أولاده لو قبل حبة واحدة. قال إنه سيحتكم إلى ضميره فى معاملتنا لكن ما معنى أن يأتى له بتلك الأقفاص؟ وعاد الرجلان يجران سيقانهما وخالى يشيعهما بنظرات مشفقة.

فتح عبد السلام الباب وأشار لزوجته أن تخرج لاستقبال جارة لا يعرفها. ومد يده بسيجارة فهززت رأسى شاكراً.

وجدت الممر الطويل يفضى إلى شاطئ بحر صافى الزرقة، وثمة نوارس بيضاء مجنحة، والأصداف تحت قدمى وتيار الماء يسحبنى. لكن أقدامى لم تخض بعد لجته العاتية.

قالت لى هامسة: لا تتركنى.

قلت وأنا أتفحصها: أنت هاشمة أم عواطف أم سوسن أم نشوى؟

قالت: نسيت منى.. هل خانتك الذاكرة؟.

قلت وصدرها الناهد يبرز من السوتيان الدانتلا البرتقالى ثم ما يلبث أن يختفى:

أتعرفين كل شىء عنى؟

هزت رأسها بثقة: كل شىء. وعليك أن تقبل مشورتى.

قلت وصوتى يأتى كحشرجة ميت، بنبرات متقطعة: لا قبل لى بكن. لقد خُدعت مرات ومرات.

لا مال لى ولا ولد إلا طفل صغير هو الآن فى حضانة أمه. وعندما يكبر سأتركه لها! وإننى لم أضع عقالاً على رأسى ولن أضع، وإننى لم أسافر ولم أعرف الدينار والريال والدولار. لن أشترى فى المستقبل خلاطات وساعات إلكترونية ومسابح ومراوح وفيديوهات لأن الأمر أكثر خطورة من ذلك. إننى لن أبيع عمرى بتلك الأشياء. إذ إننى لن أدخل تلك الخيمة المصبوبة من جحيم وأوتادها من حنظل. وأشرت لها: البحر ملكى والسماء، والمروج الخضراء وطيور النورس وذكرياتى!

قالت: كن كخالد. لقد وجد نفسه في الترحال. هززت رأسي: وسبقه معاز!

تحسست رقبتي وعتمة الزنزانة ١٤ تحوطني: هو الوطن الذى أبحث عنه!

اربدت السماء فجأة، وبدت سحابة ثقيلة رمادية تزحف فى تثاقل. قالت: لكي يسمحوا لنا بالمرور لابد أن تبرز بطاقتك الشخصية.

كانت أمامنا نقطة تفتيش حقيقية، وجنود مدججون بالسلاح، وعوائق للسيارات، ورجال بنظارات سوداء يتفحصون الأوراق. قلت بكل التأكيد: نعم. هى معى.

بحثت في جيوبى جميعها ولم أعثر عليها. وقفت تتأملنى ضاحكة: مسكين أنت. كالأيتام في مأدبة اللئام. سألتنى: ولا رخصة القيادة؟

اصطنعت ضحكة ساخرة: ليس عندى سيارة!

استسلمت لنوبة من الضحك: ما الذى يدل على هويتك يا خائب؟

كان على ذراعي وشم قديم دققته في مولد سيدى أبى المعاطى. كشفت عنه. تساءلت بدهشة: أسد يحمل سيفاً؟ ولماذا لا يعتمد على أنيابه؟

نظرت إلى الوشم وقرأت أحرفى الأولى: مثل تلك الأحرف التى محتها سوسن من على حقيبتها!

كانت تناورنى وتعيد كل أوسمتى محطمة، بعد أن أرهقنى السير معها فى الممر الذى أفضى إلى بحر ثم تلك النقطة التى هى عنق زجاجة بالنسبة لى. بدت فترينتى خالية من التماثيل واللوحات والتحف والأصداف التى جمعتها على مدار عمرى. من تجار العاديات فى الصعيد، ومحلات خان الخليلى، وأزقة العطارين.

قلت وأنا أتجه إلى هدفى مباشرة بعد أن سمحوا لنا بالعبور (وكان الرجل بنظارته السوداء قد تفحّص وشمى والتقط له صورة ضوئية وتركنى أمر): أنا لا شيء. هذا ما تقصدينه! هزت رأسها بأسى: بل

أنت كل شيء. لكن عليك أن تفهم اللعبة.

فى تلك اللحظة هجمت علىّ جحافلهم المقاتلة فى صفوف إثر صفوف: هكسوس وتتار ومماليك وعثمانلية وإنجليز وأمريكان ويهود وفرنسيس، وكانت بأيديهم الحراب مسنونة.

وجدتنى أخفى رقعة البردى القديمة التى أعطانيها الأسطى إسماعيل برباط متين فى ساقى أسفل بنطلونى.

فتشونى، لم يعثروا على شيء. أخذوا ساعتى، وكسروها بأقدامهم الغليظة.

(فى ميدان الجامعة فعلوا نفس الشيء مع معاز. وتركوه خارج الزمن عنوة!).

امتد ذراع قائدهم وكان يضع على رأسه قلنسوة فى أعلاها ريش طاووس، انتزع نظارتى الطبية وسألنى: ماذا تفعل بها. إنها تفسد رؤيتك للحقائق؟

(فى زنزانة التأديب خيروا عبد الحق الصريطى أن يكتب مظلمة للسلطات العليا كى يسمحوا له بالخروج أو يستولوا على نظارته. فلما رفض أن يكتب سطراً واحداً فعلوها، وكان يذهب لقضاء حاجته مستنداً على حارسه الذى كان يلكزه باستمرار كى يعود إلى «البرش» بسرعة) أما حذائى القديم الذى أنتعله فقد أشاروا لى بأيديهم أن أخلعه بنفسى.

(حدثنى عزيز حنا أن شقيقه بطرس حين عاد من الجبهة فى ذلك الصيف الحار هارباً من جحيم النابالم الذى كانت تلقيه الطائرات على أقوال الدبابات المنسحقة بأمر من القيادات العليا كانت قدماه متورمتين وبلا حذاء. وأنه كان يقوم فى منتصف الليل ليشهق ويصيح أن البيادة قد ضاعت وأنه دفن بيده جثة صبرى المر صاحبه ورفيق طاقمه، أما عشرات الجثث فلم تجد من يواريها التراب وأن الأمة التى لا ينتعل جنودها أحذية معرضة للهزيمة. وقد أعذر من أنذر. وقد حاولوا أن

يأخذوه للمصحة النفسية إلا أنه بصق فى وجوههم. وحذرهم أن يغدروا به لأن الحرب مستمرة وهو لم يفقد الأمل فى أن يعثر على بيادته. وكان فى الساعات الأولى من الصباح يخرج ليبحث عنها دونما كلل!).

كادت السحب أن تنجلى، وبدت الشمس باردة وحين سألتنى هل أعود إلى الممر ثانية حيث الحى والمقهى والبيت والمدرسة وفصل ثالثة أول أدبى (الفصل الذى أقوم بتدريس مادة الفلسفة فيه) أم أظل معها هنا حتى تأتى سفينة لتقف أمام ذلك المرسى الذى يواجهنا لنبدأ الحياة من جديد؟

كان ردى بسيطًا وواضحًا. بلا حذاء أو نظارة أو ساعة يد كيف يمكننى أن أبحر معك؟

رأيت أن من واجبى أن أعود. وكانت أصابعى التى أشعلتها كشموع قد انطفأت تمامًا، وكان بقلبى حزن يكفى الكون لأجيال وأجيال.

قالت نوال: لا تخش شيئًا. رجال كثيرون بدأوا حياتهم الزوجية بعد الأربعين.

دوت صرخة هائلة وحاصرنا بكاء رمادى بصوت مختنق. كانت خالتى هداية تسحب ابنتها ثريا - الدميمة - غارقتين فى السواد.

رأت منيرة، فلطمت: يا حبيبتى يا عنايات.

قالت خالتى نوال: فكر فى الأمر جيداً.

ولقد رأيت أن من واجبى أن أصر على العودة تجاه الممر الطويل. وعلىَّ أن أكون حذرًا حتى لا تطاردنى الجحافل ذاتها. بينما ظل فى عقلى سؤال يؤرقنى: ما الذى جمع الهكسوس واليهود؟ ما العلاقة بين العثمانلية والأمريكان؟

احتضنتنى خالتى هداية: البقاء لله. الصبر واجب!! ●

الفصل الخامس

سيف بشتاك

هى إغفاءة. تركتنى خالتى نوال لأستريح قليلاً، وقبل أن تغلق منيرة الباب همست لى: أدرك أنك فى حاجة لتخلو إلى نفسك.

كانت كعادتها تفهمنى. أعتقد فى لحظات كثيرة أنها عاثرة الحظ لاقترانها بعبد السلام الذى لا يحس. هو فقط قادر على أن يخلق النقود من العدم. ولا أعرف كيف ينجح فى تجارته بالرغم من تجهمه المستمر إذ إننى أتذكر أننى لم أره يضحك مرة واحدة.

لا أريد أن أنساق وراء أفكارى. بل علىَّ أن أغمض عينى ولا أفكر فى الموت الجاثم بقوة فى الغرفة المجاورة.

بيننا جدار سميك، وتلك حياة انطفأت بعد أن ومضت وامتد الوميض ليخبو كرماد منطفئ بارد.

أتخبط بين أفكارى وأنا أمد يدى أبعد هذا الموت الذى تكرر فى ذات الحجرة وعلى نفس السرير منذ سنوات قلائل.

تنهشنى الرغبة لأن أفتح شباك نافذتى وأصرخ فى الليل أن ينجلى ويرسل طلائع الصباح كى أنتهى من تلك الهواجس التى تأخذ بخناقى. أتعطش للحظات صفاء ولا أكترث بمواضعات الدنيا التى تخلو من كل معنى.

قال فودة الخزرجى لأمى بعد أن فشلا فى الإنجاب: لابد أن تعرضى نفسك على طبيب.

قالت له بحدة: ومن قال إننى عاقر؟

نظر إليها نظرة احتجاج وكأنه لمس منها نبرة تجريح لذاته: لم أقل. لكن أعواماً مرت دون حمل.

قالت له ولم تكن تخشاه: العيب عيبك.

انتفض من مقعده: أتجرئين؟

نظرت إليه بعينين مندهشتين: أتخاف من كلمة الحق؟

اعتراه الحزن، وكأنه يحدث الدنيا جميعها: يا عالم. نفسى فى ولد واحد. ولد من صلبى يرثنى بعد مماتي، ويكون سنداً لى فى شيخوختي.

ظلت ترقبه حتى هدأ: أليست لك بنات من الأخرى؟

هز رأسه: لى بنات، ما أريده ولد. يجلس معى على المقهى وأطلب له الشاى. وأشعل له سجائره حين يشتد عوده.

خففت عنه: البنات أحباب الله. هذا فضل منه أننى لم أنجب الولد لك. وإلا لطار عقل زينات.

كانت المرة الأولى التى أعرف اسمها، وكنت قد رأيت البنات: هاجر وسلوى وفاطمة. كانت أجملهن فاطمة. رأيتها فى حارة العيد تركب الأرجوحة، وتطير أطراف فستانها الأحمر، وتكشف عن ساقين دقيقتين. ضحكت فنظرت نحوى مستنكرة.

حدجتنى بنظرة مندهشة، قلت لها: يا ابنة فودة الخزرجي، ألا يطعمك أبوك؟!

نظرت نحوى فى تحد: من أنت؟ هل تعرفنى؟

قلت لها وأنا أرتب الكلمات: أبوك هو زوج أمى!

قالت بعفوية: أنت أخى؟ وأين ملابسك الجديدة؟

قلت وأنا غارق فى الخجل لأن أحداً لم يشتر لى ملابس العيد: لست طفلاً. الأطفال وحدهم يشترون لهم تلك الملابس ليفرحوا.

اقتربت منى: أنت إذن ابن خاطفة الرجال؟

أخيراً وجدت من يشتم أمي. اقتربت منها أكثر وقد غلبنى

الضحك : نعم. خاطفة الرجال. يا له من لقب !

سألتها ويدى تمسك يدها النحيفة : تلعبين معى ؟

قالت ببراءة : لا أعرفك.

قلت وأنا أضغط بأصابعى على معصمها : أنا قريبك، وعم فودة أبوك يضربنى كثيراً. لكننى لن أضربك.

ضمت ذراعيها وشبكتهما فوق صدرها : أوصلنى حتى نهاية الطريق. أريد أن أعود. قلت لها وأنا أسير معها : هل أنت حزينة لأن أباك لم يعد يحضر عندكم؟

قال بأسى : يرسل الطعام والنقود ولا يأتى.

انتظرت برهة قبل أن تنطق بصعوبة : أمى تقول إنه مات. لكنهم لم يحشروه فى النعش. أراه جالساً على باب الوكالة. أنظر إليه من خلف أجولة البطاطا وأهرب خوفًا من أن يرانى، وتعرف أمى.

كان صوتها يختنق بالبكاء، قلت أخفف عنها : هل تزورين معى أبى؟ قبره هناك. كانت الشواهد ظاهرة وأهلة من خشب لونه أخضر.

قالت : أخاف القبور. هل تشترى له بعض «الخوص»؟

قلت وقد اعترانى الزهو فجأة : سأكتفى بقراءة القرآن. ألا تحفظين الفاتحة؟

قالت : أحفظها.

ولقد زرناه فى ذلك القبر الذى قبته من حديد مشغول. كانت بجوار القبر قطة تحتضن صغارها وتموء. أردنا العودة. أخذت كفى كفها، سرنا صامتين.

ما حكايتى مع البنات ولماذا يبكين دائماً؟

هطل المطر فجأة ولم تختبئ. لم نحاول الوقوف تحت الشرفات بل سرنا نشرب بجسدينا الضئيلين المطر. أنا وفاطمة.

رآنا شكرى على البعد. غمز لى بعينه : من هى؟

قلت له وأنا أتهرب من نظراته المتفحصة : فاطمة. ابنة عمك فودة الخزرجى.

اقترب منها، يتأملها بكل جرأة. وضع يده اليمنى فى جيب فستانها يبحث عن حلوى أو نقود فلم يجد. صرختُ فى وجهه: ماذا تفعل؟ إنها أختك!

رنت ضحكته ساخرة وكان أطول منى قليلاً. وقف بينى وبينها، حجبها بجسمه وقد وشت نظراته بشىء من الفضول والانتقام. صفعها بلا سبب: لماذا تحدقين فىّ؟

بكت البنت الرقيقة، واندفعتُ نحوه أضربه. أوقعنى على الأرض المبتلة، وركلنى فى بطنى. قمت أتلوى من الألم. وأمسكتْ بطوبة وألقتها بعنف نحوه. شجت رأسه وسال الدم. أما هى فقد اندفعت نحو منزلها الذى كنت أعرفه دون أن تنظر خلفها. تحسس الدم وراح يصرخ: يا ابنة المجرم.. يا.....

قلت له: هذا جزاء عادل لما فعلت.

كانت مياه الأمطار تندفع بجوار الطوار محدثة صوتًا غريبًا، وزخم الرطوبة يختلط بأنفاس البرد، ولم أتركه حتى وصلنا البيت. سألته أمى: من فعل بك هذا؟

نظر نحوى لأؤكد جوابه: طوبة سقطت من بيت قديم.

قلت وأنا أتحسس كذبى: طوبة اختارته هو بالذات فى سوق الخضر.

بينى وبين الموت جدار. باب بيتنا واطئ ومترب، والسلالم الحلزونية تفضى إلى باب الشقة بطلاء «الجملاكة» البنى الداكن.

حين اشتد عليه السعال، وعاد من الوكالة محمولاً على أكتاف الرجلين اللذين كانا يأتيان بأقفاص الفاكهة قال لعنايات - أمى - بصوت واهن: أغلقى الشيش وأسدلى الستائر. فودة انتهى أمره.

سمعته يبكى كالنساء وهى تخفف عنه: شدة وتزول. تقوم بالسلامة.

كان صوته مبحوحًا: لو وافقت على الذهاب إلى طبيب لكان عندى ولد يرثنى. أترك له الوكالة وأنا مستريح.

قالت بخشونة : ليس الوقت مناسبًا لهذا الكلام.

كانت رائحة الأدوية نفّاذة : محاليل وبرشام وحقن. الضوء أصفر شاحب يليق بأزمة صدره، وحشرجة صوته.

قال لها : لقد كان زواجي بك من أجل الولد. لم أقصر معك في شيء.

تسرب صوته من أسفل الباب المغلق، وكنت لا أسترق السمع، لكنه يأتي إلي مجروحًا ومغلّفاً بالأدوية والسعال المشروخ : البنات لمن أتركهن؟ كنت أريد أن أموت بين أيديهن، لكنها رفضت وقالت إنني اخترت ويجب ألا أرجع!

كانت البرودة تتسلل إلى صوته. نادتني أمي أن آتي بدورق المياه. دخلت بتوجس على أطراف أصابعي. نظرت إلى وجهه الشاحب، وإلى جواره على المائدة علب أدوية وكمادات، وعشاء خفيف لم يمس. نظر إليَ بلا معنى، وكأنه يستجمع آخر ما تبقى لديه من صوت، يختبره : لقد كبرت يا عبد العزيز. ولم تعد الطفل الذى كان يُثير المتاعب. صدقني كانت أيامًا جميلة!

وكأنه يلقي نحوي بالحصى. يرجمني بلا هوادة. وأي جمال في تلك الأيام التي كسر فيها قلبي، ومضى إلى هدفه الذي لم يتحقق!

كانت فاطمة تنضم إلى زمرة البنات التعيسات اللائي عرفنني، ولم أستطع أن أكون مفهومًا لديهن. كنت مترددًا مرات، وضعيفًا مرات أخرى. ذلك اللطف الذى كنت أبديه نحوهن لم يكن بذات معنى، وأقدام غليظة تكسر هشاشته.

انفتحت داخل هذا الحائط السميك سراديب مخيفة راحت أسراب النمل تجوبه، ورحت أجتاز مرحلة الصمت، وأنظر بإمعان إلى الجسد المسجى، وطيور خضر مهاجرة تحط على حافة السرير تنقر فتات خبز قديم تعلوه طحالب خضراء دقيقة، وتحرك أجنحتها في حفيف مؤثر.

كنت مندفعًا لا أعرف سر تلك الطيور، وكيف دخلت والنافذة

مغلقة، وهل باستطاعتي أن أهشها أم أظل أرقبها حتى تنصرف بنفسها دون ضجيج ؟

تعجبت أن أسراب النمل تسير في صفوف منظمة لا تحيد عنها، وأدركت أن صرخته الأخيرة ـ والسعال يمزق صدره ـ كانت هائلة.

خرجت أمي بمنديل عريض قد بصق فيه دماً لونه قاتم. وجهها الشاحب لا أكاد أعرفه، ونظراتها غير مستقرة. جلستْ في الصالة. قالت : فودة مات. أرسلوا لبناته. ثم بعد صمت طويل انخرطت في بكاء شاحب بلا حرارة.

حائط سميك وإغفاءة !

ما الذي يبرر وميض وجهها في تلك اللحظة بالذات ؟ هل مات حبها داخل قلبي ؟ ما مصير ضحكاتها الصافية ونحن نسير تحت القباب المملوكية، فتنعش صدورنا رائحة الأزمنة القديمة ؟

نتحسس بأصابعنا زخارف ومنمنمات ذلك العصر الذي انقضى. نبحث عن معنى التاريخ الدامي في تلك النقوش التي وقفت ترمق مسيرة الزمن وتتحداه.

كنا نتقدم الشلة - أنا وعواطف - وتسبقني في ارتقاء الدرجات الحجرية. ننتقل من أثر تاريخي إلى أثر آخر. وقصر الأمير بشتاك بشبابيكه الحديدية الغليظة يطالعنا برونق يتآكل والجدران كتل هائلة من حجر أبيض له ملمس ناعم. قاعة القهوة، حجرات الحريم، باب السجن. نطل على القاهرة القديمة وأصوات البائعين في الغورية تأتي خافتة، وقلوب دامية لأمهات غاب أولادهن خلف ذلك الباب العتيد، وأنين مظلومين ودعوات مقهورين ضربوا بالسياط على ظهورهم العارية. وأسياخ من الحديد تنفذ إلى القلب. كنت قد تركت يدها وسرت مأخوذاً، مبهوراً بالجبروت وعنت المماليك والجراكسة والخصيان من كل ملة وجنس. هي التي أشارت أن نأتي هنا. قلت لها وأنا أستدير في

مواجهة هذا الصلف : الحب مستحيل في هذا المكان دسائس أشم رائحتها ، ومؤامرات لقتل أحفاد من جلدوا وخلعوا أظافرهم . قالت عواطف وهى تتقصع : ظهرى يؤلمنى . ألا تعرف لذلك سببًا ؟

تفصل بين الحجرات جدران غليظة ويتناهى إلى سمعك خطو الزمن المترب . كنت أسأل خالى الأسطى إسماعيل عندما أزوره فى دكانه عن الجهات الأربعة : من أيها تطلع الشمس ؟ وما معنى المغيب ؟ عن أسباب حدوث الليل الطويل ؟

كان ينظر إلىَّ مليًّا ويغمرنى بحكمته : كل ليل وله آخر . امش فى طريقك بالاستقامة يحتار عدوك فيك !

تحسست النقوش ، واهتزت الظلال شاحبة ، بينما الخفافيش راحت تحلق فوق الرءوس والبنات يطلقن صرخات مذعورة تشى برغبة فى التنفيس عن آلام حبيسة وأحزان مكبوتة ، أو رغبات شريرة جاء وقت الإفصاح عنها .

قالت : لماذا اخترتنى ؟

كان سؤالاً قديمًا وبلا معنى . رحنا نرمق البيوت الواطئة ، وبدت الشرفات مكتظة بأحبال الغسيل ، ونسوة على العتبات ، وماء مصبوب أمام الأبواب ، وأطفال يجربون الحبو ، ويتعثرون .

كان صوت عظام تطقطق ، وأنين خافت ، وهمهمة خفية ، وقبضات تعصر الصخر فينز دمًا قانيًا كالذى أرتنى أمى إياه فى المنديل .

قلت لها بانفعال : إن علينا أن نفرض صوتنا بعد أن طال كبته .

قال معاز وهو يشد على يدى : لن نسكت على الهزيمة .

انضمت عفاف للجوقة المرددة لتلك الكلمات المتغطرسة : سيكون صوتنا هو الحاسم . قال عبد الحق : عباد الشمس يتجه دومًا إلى إشراقها .

قلت : ينبغى أن نصوب مواسير مدافعنا تجاه الشرق .

وكأن الفكرة كانت بنت لحظتها . تلك قلوب عذبتها الهزيمة ،

وأدماها الانتظار الذى لا يحمل معنى.

كان خروجنا فى ذلك التوقيت بعثاً جديداً. هل نبتت الفكرة فى كل الأمكنة فى ذات الوقت. لا نعرف سوى أن هتافنا كان يمس قلوبهم فيأتون فرادى وجماعات. اعتلى عزيز كتفى معاز وراح يلوّح بقميصه: يا مصر يا حرة قومى!

واندفعت الحناجر بالأبيات المنغومة. كنت أشعر وقتها أننى أخترق الجدران الصلدة، وأمسك بالمفاتيح الحديدية، أديرها فى الثقوب، وأخرج المظلومين والمقهورين من حجرة السجن العفنة الرطبة. أتوسل للنفوس أن تفصح عن معنى. أبعث شهقة عارمة بالحياة من خلف ركام هائل من رقع جلدية تحوى المظالم.

قالت ويد الحارس تدفعها فى ظهرها: ابتعد!

قلت وأنا أرث حزن كل هؤلاء المنسيين: لم تبتعدين؟

فاض الألم بنا، والنصب التذكارى يشتعل بالهتافات وهراواتهم تضرب بعنف أكثر. هى الآن تريدنى. فهل ترسل نجلاء بالبطاقة التى تحمل دعوة زفافها. أم ترسل بورقة طلاقها؟ وهل تنطق زيزى وتصعد فوق القرص المستدير إلى أعلى بين الأضواء حتى لا تعود تسمعنى؟

من زارنى فى زنزانتى غيرك يا فتحى. دسست فى يدى وعداً بأنها لى: سكن ووطن. أتحسس شوقى لها، والقط الأرقط يرقبنى فى زهوى: يا فودة يا خزرجى اذهب عنى ولا توقعنى فى حبائلك. هى لى وقد أسندت رأسها إلى صدرى وغمرتنى بضوئها الفياض ولن تفلح ألاعيبك!

جدار سميك، وأصواتهن تأتى إلىّ مشوشة، ومناديلهن تمسح دمعات تفر كلما تذكرن موقفاً لها أو كلمة عابرة قالتها قبل أن تلملم حاجاتها وتمضى بلا رجوع!

حين ذهبت معه تحولت الدنيا إلى رقعة سوداء كبيرة خالية من كل معنى، وفاض بقلبى ألم مملوكى هائل!

قابلت انتصاف في تلك الآونة المعتمة التي كنت أضمد فيها جراحي النازفة. كانت تكتب أشعارها في دفتر أزرق أنيق، عن فارس لا يشق له غبار، يخطفها وينطلق على حصان أشهب بعد أن يفك قيود المدينة ويقتل التنين المتربص لها بالموت.

لم أكن هذا الفارس بحال إذ إن الحوافر ذاتها انطبعت في قلبي. قال أبوها تاجر الموبيليا وأنا أجلس بين أمي ونوال: زواجك من انتصاف يشرفنا. اترك لي مهلة قصيرة للتفكير، ثم إنني سأسأل عنك!

اسأل طرقات القلعة وأزقة السيدة زينب ومآذن وقبابا مملوكية استندت عليها مولولاً، وخانات وأروقة لها رائحة خزف قديم محروق، ستخبرك عني. أما تلك المدينة الساحلية التي أذاقتني الحرمان بقهرها إياي. بواجهات المعارض والصالونات الأبهة وأطقم النوم والسفرة والأنتيكات فلا تسألها فهي لن تجيبك أبداً. ستواجهك بصمتها الكاذب وغطرسة شوارعها التي جرح زجاجها أصابع قدميك الحافيتين. الرخام ألواح تمتص دفء الشمس في غروبها ولا تمنحه إلا للمشترين والسماسرة وتجار الجملة والقطاعي.

حدجني بنظرة أخيرة يسبر غوري: سأقابلك بعد أسبوع.

كان غبار شاحب وأشلاء ذكرى، ونصل مكسور في فؤاد ملتاع، وقباب مملوكية، ونسيج دمشقي، وجدران من صخر مرشوق بالحديد، ومقرنصات، وأشعار على رقعة غزال. قال: وافقت.

انطلقت زغردوة، وتحرك الطمي فحاصرني وملأ حلقي. موسم التزاوج والإخصاب. رأيت الأسماك تتقافز وتمر من بين أصابع قدمي. أسماك ذهبية لها زعانف مشرعة تؤلمني بألم لذيذ ممتع.

عينان خابيتان كانتا لي. قالت وهي تخلع ثوب زفافها التُل: لماذا أنت حزين؟ حطت عليّ مخاوف تلك الأزمنة، وهزائم الصيف الدامي، وقبضة لا ترحم تعصر القلب. هبت ريح سوداء من داخل أقبية تجلط

الدم على جدرانها. وأمواج تلطم وجهى. ضحكت وبدت كنقطة من عبير وسط هذا العفن.

قالت لى: انظر إلى عينىّ وانس همومك للحظة.

بعد تسعة أشهر قالت وهى تسير فى الصالة بصعوبة، وتستند إلى قطع الأثاث: انظر لاستدارة بطنى. هو ولد.

كنت فرحًا، ومنيرة أكثر سعادة منى. قالت نسميه باسم أبيك صالح؟

هززت رأسى موافقًا ولم تمانع انتصاف.

تبعثرت صرخاتها وهى تمسك بأطراف الملاءة، يدها تنقبض وتنبسط، وطست الماء الفاتر يدخل من فرجة الباب.

قالت أمى: مبروك. كما تمنيت.. ولد.

لفت منيرة المولود فى بشكير نظيف. قالت حماتى وهى تربط السرة بحذق: اكسر بصلة. الولد أصابه الدوار.

كسرت منيرة بصلة وقربتها من أنفه الدقيق، رأيت عينين خرزيتين تتخفيان من الضوء. كنت أريد أن أسأل الأسطى إسماعيل: ماذا نسميه؟

لن يعارض هو الآخر، سيحتضننى فرحًا، ويمد يده بالورقة من فئة العشرة جنيهات.

خرج صالح إلى الدنيا كزهرة عباد الشمس. نظر إلى الشرق واسترعى انتباهه ذلك الوهج الساحر.

قال عبد الحى وهو يساومنى: الراتب لها. وأنت الذى تصرف على البيت. تدخَّل أولاد الحلال، تحجّر عقله، كاد يطردنى من معرض موبيلياته: ألست رجلاً؟ تنتظر امرأة لتصرف عليك.

ارتفع صوته: لمَ تنظر إلى نقودها؟

كان صوته يرن فى الفراغ كسوط يدمى ظهرى: يا طماع!

قلت له وأنا أهز كتفى بكل بساطة: ابنتك طالق.

احتقن وجهه بالغضب: لا يهمنى!

قلت وأنا أعطيه ظهرى لأنصرف : أعرف . أعرف هذا !

فى الفراغ الهائل بين مئذنتين راح صقر ضخم يدور، منقاره المقوّس يلمع بينما يفرد جناحيه ويخفق بشدة .

تحت مخالبه وخفت هذه المرة . القباب هائلة والمآذن تطعن السحب ودمى يقطر : قطرة قطرة .

لو أننى أحلم ما انتابنى هذا الفزع كله ولما أحسست بالارتجاف يهزنى .

قالت نظراته البريئة : أبى . لماذا ابتعدت ؟

بكيت بين يديه ، والصقر يحلق : إننى أحبك .

كل الأسوار جلبت لى الحزن أما جدك - عبد الحى - فقد جلب لى العار . لن تموت برداً وعرياً .

قال الأسطى إسماعيل : يا بنى . فكر فى ابنك . تلك مسئولية تحاسب عليها أمام الله .

أراد أن يذهب بنفسه لإصلاح الأمور ، وقبلت على مضض . أدركت أنه ذهب معتذراً وتائباً . قال عبارات نسبها إلىَ لتعود المياه إلى مجاريها .

قال عبد الحى بعجرفة : ابن اختك لا ينفعنا .

اختزن فى صدره ذلك الألم ولم يبح بتعاسة أن يعود مهزوماً .

قال : البيت شاغر ، ويحتاج إلى من يعمّره . لا تجن على الطفل .

كانت المأساة تتشكل فى ثوب عصرى . قال : هى لا تريده .

جاءنى متعب القلب . يتوق إلى حل الأزمة : واصبر على ما أصابك . .

قالت أمى تستحثنى : لا ترجعها . طلّقها بالثلاثة .

قالت الحاجة محرومة وهى تتنهّد : عائلات لا أصل لها . اسألونى أنا .

قلت لنفسى : الرحلة طويلة . والزاد قليل .

لا أدرى كيف أننى تحت سيف بشتاك يطعننى فى الجانب الأيسر . أسفل الثدى ليتدفق دمى أسود له رائحة الحزن . حزن الماضى الذى لا ينتهى ! ●

الفصل السادس

أشياء منسية

هل ماتت بالشيخوخة؟ تلك التى يرقد جسدها على بعد ذراعين منى؟

فقط يوجد جدار، وحبل يتدلى من السقف، ومشجب. أما الصورة القديمة التى كانت تجمعنا قططاً تحبو تحت أقدامهما فقد رفعتها.

قبل أن يدخل فودة الخزرجى بهيبته رفعتها ، وعلقت صورة زيتية لكلب تحت أقدام سيدة.

هل أحكمت منيرة المزلاج الحديدى الصدئ فى هذا الوقت المتأخر من الليل؟ أشعر برأسى ثقيلة ولا أدرى من الذى تسلل إلى حجرتى فأطفأ المصباح فبدت الجدران بعيدة بعيدة. وكأننى نقطة بشرية تسبح فى فضاء الحجرة ولغطهم يصلنى. أميز منه صوت شكرى الغليظ، وعبدالسلام المنفوخ بكبرياء فارغة، ومنيرة الحنون، ونوال الساحر بالأحلام وحكايات الجنيات والقماقم وأصداف البحار.

هل هذا صوت هداية الذى يأتى لحوحاً؟

سقطت لها سنتان أماميتان حين ارتطم فمها بزاوية حديدية وهى تندفع إلى القسم الذى حجزوا فيه شعبان بعد أن قبضوا عليه متلبساً بالرشوة.

نهضتُ وضغطتُ زر النور، فغمر الضوء المكان، وتناهى إلى سمعى صوت منيرة فانبعث داخلى ونس حبيب.

كانت هداية تؤنب ابنتها ثريا التى فشلت فى العثور على عمل بعد حصولها على دبلوم التجارة. أعرف أن هذا يرجع إلى افتقادها لأقل قدر من الجاذبية أو الجمال. من الذى يغامر بوضع بومة خلف مكتب محاماة أو محاسبة؟

تلك الفتاة التي تبتسم ابتسامة بلهاء عندما تراني وتكرر نفس السؤال الساذج الأبلة : كيف حال زوجتك وابنك ؟

لا أعرف لماذا أشعر أن عشرات العيون ترقبني من خلف ثقب الباب الموصد . تتطلع ناحيتي وتتحين الفرصة للهجوم الأخير . أخير لمن ؟ لهم أم لي ؟

قال شعبان تومرجي الصحة وهو جالس على دكة خشبية قديمة ، وأمامه منضدة حديدية قوائمها صدئة ، والسطح ساقط الطلاء : ابحث بنفسك . كل الأسرة مشغولة . كان يستند على كتفي رافعاً قدمه المصابة والمضمدة بالأربطة المعقمة . أدخلونا الاستقبال . قال الطبيب وهو ينتهي من آخر غرزة في باطن القدم المخيطة :

احرصوا على نظافة الجرح . لا يخرج الآن . أريد أن أتابع الحالة .

اندفعت نحو شعبان - زوج خالتي هداية - محاولاً التخلص من المأزق : لا يمكنه الخروج الآن . نريد سريراً .

نظر نحوي في تحد مكشوف ، وكاد لسانه يفلت بالحقيقة المرة : لو كنت اقترنت بثريا لكان بمقدوري أن أخدمك .

لكنه لم يقلها . حاول أن يوصد كل الأبواب المفتوحة في وجهي .

نظر إلى دورة المياه القذرة التي تمتلئ بالصديد والدم وأربطة الشاش الملوثة :

هناك حجرة لسريرين في هذا المكان يمكنك استخدامها .

كان يرتدي الأفرول الميري ومعطفاً أبيض له جيوب واسعة أسفل البطن :

أعرف لماذا تصنع الجيوب بمثل هذا الاتساع .

سألني وأنا أحدق في ملابسه الرثة : ماذا قلت ؟

تسللت إلى أنفي رائحة الفورمالين ، واليزول . سرت خطوات ، ونظرت إلى الحجرة .

صعدت درجتين ونظرت أكثر . من فرط قذارة المكان كدت أعتقد أن هذه حجرة لتعذيب المرضى والتخلص منهم . كانت خالية إلا من سريرين . يتحرك على الوسائد البالية نمل أسود غريب ، وحامل

للمحاليل، وثمة نافذة علوية تعشش خلفها العناكب.

قلت كابحاً ثورتي: شكراً لك يا زوج خالتي.

سحب قدمه السليمة وأنينه يصدع قلبي: يا إلهي.

كيف يمكننى أن أقاوم ذلك الإهمال المتعمد وتلك البلادة؟

قال لي يحيى مختار وأنا أشير للحوذى خارج المستشفى وقريباً من السور الحديدى المسنون: لا تحملني. يمكننى أن أصعد. فقط ارفع جسدى.

أسند رأسه على مقعد الحنطور الجلدى. قلت له منكسراً: اطلع يا ريس.

كان يوم خميس والهواء العاصف يزيد من الأسى فى صدرى. حين وصلنا إلى شارع البدرى المتفرع من سوق الحسبة أوقفت الحنطور.

رأيته زائغ البصر يتألم: من يغلق أبواب الورشة؟

قلت له: صبيانك يمكنهم عمل ذلك.

قال وصوته له وقع بيت يتهدم: اتركنى الآن واذهب لزوجتك.

قلت لرفيق الطفولة، وكل الجسور صارت تتساقط فتوقظ عقلى من سباته بينما الهواء يعصف: لقد تشاجرنا. وعادت إلى بيت أبيها.

سألنى ونبرة لوم نادمة تتسلل إلى كلماته: لماذا؟

لم يكن لدى جواب. رحنا نصعد الدرج الخشبى، همدت أنفاسه، وكان يحاول لفت نظرى أن برصاً صغيراً كان يتحرك ملتصقاً بالسقف. صرخت فيه وأنا أخلع فردة حذائى وأسحقه: يا شعبان يا أسوأ المخلوقات.

سقط البرص يتلوى، وتراقص الذنب المبتور فى اهتزازات جد سريعة.

أمسكت يد يحيى بالدرابزين. ضحك بصعوبة: انتبه لمستقبلك. وفكر فى أمر زيجتك القادمة من ابنته. فقد تصدمنى سيارة فى مرة أخرى!

كدت أصعق: كيف عرفت أنه يتعمد مضايقتى؟

اقشعر بدنى وأنا أتصورها زوجة لى: لا شىء يخفى علىّ؟

نفس ابتسامة معاز الغائبة. هل تصلى فروضك بانتظام فى بلاد الفرنجة كما كنت تفعل قبل سفرك مباشرة؟ دست بقدمك كل الكتب التى حرصت على اقتنائها وأمسكت مسبحة وأطلقت اللحية وحففت الشارب وقصرت الجلباب.

كيف تبدو (سليا) الآن وهل تشربت فزعك العربى حقًّا؟

هل تقوم من نومك لتقرأ سورة مريم، وتدمع عيناك وأنت تتلو الآيات خاشعاً؟

زفرة على فراقك فى البلد البعيد المغسول بالضوء والعطور ونسمات الحرية.

قمت ورحت أذرع الحجرة جيئة وذهاباً. سألتنى منيرة بصوت خفيض من خارج الغرفة: أصحوت يا عبدالعزيز؟

حركت لسانى، حاولت أن أرد عليها. لم أستطع. قالت لأخرى لم أتبين صوتها:

يبدو أنه غارق فى النوم.

مخالب ذات الصقر مشرعة فى وجهى، والعناكب التى اختفت من أحلامى السابقة بدت فى يقظتى وقد تضخمت وتوحشت وراحت تتحرك فى كل اتجاه محدثة صوتاً غريباً كأنه العويل.

تقدم. وجهه الساطع المضىء قال لى وشجر النخيل يحفه من كل ناحية: لماذا لم تعد تزورنى؟ قلت لنفسى وأنا مفتون بثوبه الأبيض الناصع: نداء لابد أن ألبيه!

ثم وجدته يبحث فى دلو ماء عن خاتم له فص من الزمرد. وجده بصعوبة. طمأننى وهش فى وجهى: ضعه فى إصبعك.

قلت له وأنا أستقبل رذاذ الماء الذى راح يرش وجهى به: الآن؟

قال وهو يستدير فى اتجاه المندرة: الآن.

دسست يدى تحت الوسادة وقرأت شيئاً من القرآن فسكن قلبى.

لكن وجهه ظل مبتسماً يرنو بعذوبة لا مثيل لها نحو طفلي الذى لم أره منذ زمن!

هل يمكنني أن أتذكر كيف سقط وسط طيبته البالغة؟

لقد ترك دكانه كما هو والدنيا تغير ملامحها: أبوابه القديمة التى محت الشمس لونها، عتبته المهدمة. مازورته التى يقيس بها الأطوال محا العرق أرقامها.

خرج الصبيان ليفتحوا محالهم، وينفذون أحدث الموديلات بلمسات عصرية مختلفة. بقى وحده مخلصاً للأصول التى عرفها فطحنته المهنة بعجلاتها. وأين المفر؟ حين انفض من حوله الزبائن، وانكسر لوح الزجاج البلجيكى الذى كان يفخر به ويتركهم يبدون ملاحظاتهم فى البروفات. انفرطت من القلب حبتان.

وبقى مع أصحابه الذين خرجوا على المعاش، وأولئك الذين كان يقص لهم أقمشتهم ويخيطها دون أن يتقاضى أجراً.

وحيدا ظل جالساً أمام دكانه، ونظرته تفيض بالحكمة.

قالت - زوجته - أم صبرى: لماذا لا تقبل خلو الرجل. بع الدكان واسترح.

قال لها وشفته السفلى ترتعش: لو ضاع الدكان لمت.

حاولت إقناعه: لا تكسب من ورائه شيئاً. تدفع الإيجار والإنارة؟

فى اليوم التالى أتى السمسار مصطحباً الحاج نوارين تاجر الموبيليات الذى يمتلك أسطول سيارات لنقل الأثاث خارج المدينة.

أشار السمسار بيده فأخرج من جيب جاكتته رزم البنكنوت، رصها على ماكينة الخياطة العتيقة: اسمعها نصيحة. خمسون ألفاً واترك لنا المحل.

اندفع الدم إلى وجهه. صرخ فيهما: من قال لكما إننى أبيع؟

قال السمسار: نحن أعلم بأحوال السوق. تلك المهنة صارت بائرة.

فز من مقعده وأشار لهما أن يذهبا. لم يفعلها مع أحد من قبل.

عاد محنى الظهر واجماً بعد أن أوصد الأبواب بصعوبة. وكأن نور عينيه انطفأ والدنيا خرِسْ.

قالت له وهى تفتح الباب: لماذا عدت مبكراً؟

لم تكن أنهت جملتها بعد إذ وجدته يسقط أمامها ويده ترتعش رعشة أفزعتها.

صرخت سكينة: الحوقنى.

مددوه على الفراش، وأسرع صبرى ـ الذى كان فى إجازته الشهرية من وحدته العسكرية ـ ليحضر الطبيب.

حين وضع السماعة على القلب، وتحسس النبض، عرف كل شىء.

نصحهم أن يخلوا الحجرة، سألها: أنت زوجته؟

ردت بخوف: أنا زوجته. ماذا به؟

أمسك بكتفيها يصبرها: تماسكى. عنده شلل!

سقطت ودخل صبرى وحليم وعالية ارتموا على الجسد المستكين فى بكاء مرير.

عندما عرفت أمى جرت فى الشارع حافية، بعد أن لفت الملاءة السوداء حول جسدها. صعدت سلم منزله ذاهلة: رد علىَّ يا أسطى إسماعيل.

كان لسانه ثقيلاً، وكانت الحكمة التى عرفتها عنه توشك على الأفول.

لم يبك إنسان على مصاب مثلما فعلت تحت الأغطية وبين طيات الوسائد وفى الطرقات الخالية من البشر.

زرت أبى وسألته فى قبره: لماذا خالى إسماعيل دون غيره؟

استندت على الحديد المشغول بكوعى، وأدخلت سعف النخيل الأخضر من بين الفتحات، ولمحت على سطح التربة المحدودبة زهرة صفراء صغيرة أنبتها المطر.

كان صوته المنحبس يطاردنى. قلت لأبى: قم لترى ما لحق بى من مصائب.

أتى صوته هادئاً وحزيناً : هى الدنيا .

ولما كانت الدنيا لم ترنى سوى الصفعات والركلات والفقر والحفاء ، وزوج الأم القاسى ، والأخ الذى يخطف الفتاة التى أحببتها ليعبث بعفتها ، والعثور بصعوبة على فلقة رمان بعد النبش فى قمامة آخر الليل ، والزنزانة ١٤ ، وهجرة الأحبة كسمان مضروب بالتعب والغربة فقد رفعت رأسى محتجاً ومتمرداً .

لكنه وقف في وجهي ، وجذبني من يدى بقوة هذه المرة : لكل شيء حكمة . فاصغر .

عدت إلى منزلي . أغلقت باب الحجرة بقوة في وجه فودة الخزرجى الذى كان يجذب أنفاساً متتالية من «الجوزة» . رآني فجذب أكثر وقرقرت المياه ، وتصاعد الدخان ليجثم على صدرى مع الحزن .

وددت أن أفهم أكثر . أخرجت سحارتي ، وبحثت عن كل الكتب التى تتحدث عن الموت والحياة ، لكنني أريد أن أفهم ما بينهما ، مد يده وأطفأ اللمبة : نم . صوته الرزين يأتيني : اصغر . قلت : ما أنا بصاغر !

خرجت فوجدته ينظر إليَّ نفس النظرة الفارغة . جذبته من جلبابه : لماذا لا تموت يا فودة لنستريح ؟ !

جاء شكرى وقال : عيب !

كانت رأس فتحى تطل من وراء كتبه ، قال : غلط .

حتى منيرة التى هى توأم روحى قالتها . وخرجت أمى ووقفت أمامى متحدية : ماذا أصاب عقلك . بيتك وخربته . أتريد خراب بيوت الآخرين ؟

قال خالى الأسطى إسماعيل وهو يبحث عن كلمات يطبب بها روحى : عيب . هى امرأتك .

قلت له وأنا أمنع دمعة من الانحدار فوق صدغى : لكنها شريرة . أخذت الولد وطفشت .

قال مخفياً انزعاجه من نبرة صوتى العالية : أنت قليل التجربة . فى

البداية تكثر المشاكل وبعد فترة تهدأ الأمور وتستقر.

قلت ملقياً آخر أسلحتي: سلمت بالهزيمة. أنا غير قادر على حماية بيتي.

صمت قليلاً ومرارة الدنيا في عينيه. لم يعنفني، كان أباً وهو يضمني إلى صدره: أنت رجل. وعليك أن تخرج من التجربة كما أعرفك.

نظرت من الشرفة إلى الشارع الذي غرق في بهرجة الأزياء. أطفال صغار يضحكون، فتيات ممشوقات يسرن في دلال، رجال يشقون طريقهم في دربة. ولم يكن هناك عابس سواي. قلت له: ننفصل.

تعلقت عيناي بصورة طفلي في صدر الصالون، وتصورته واقفاً فوق سطح عمّته منيرة يلعب بطائرته الورقية، يشد خيوطها ثم يرخيها.

عدت إلى نفسي وطردت صورته. أما صورتها فلم تكن تشغلني. جلس على الكنبة وكانت الستارة أمامنا منقوشاً عليها أوراق شجر فارع وعصافير محلقة فوق الأغصان.

طرقت الباب ودخلت. قال لها قبل أن تجلس: ابنك يريد أن ينفصل!

ردت وعفاريت الدنيا تتقافز في وجهها: انتصاف لا تستحق سوى الطلاق.

قال خالي وصوته الرائق يحاول غسل همومي: أبغض الحلال.

كان ردها جاهزاً: شرع لأجلها، فلا تحد عن الصراحة.

أتانا صوت الماء الذي انقطع في الصباح. كان خريره مميزاً. قمت لأغلق المحابس والباب الموارب الذي تركته مفتوحاً حين دخلت.

وجدته يحدثها. يدي تؤلمني. وفي رأسي صداع شديد.

كان يبدو مهدماً. قالت له: سافر إلى القاهرة. اعرض نفسك على أخصائي

كان يعاني ضيق ذات اليد. لم يفصح عن ذلك، لكنني استشعرته. وحين تخرج صبري من الكلية الحربية أخفى عنه أنه كان يقترض من

التجار من حوله نقوداً، ليبدو مستوراً وقادراً.

كنت أشعر بكل شيء. في مساء يوم حزين أردت أن أفاتحه بالأمر. هل يمكنني أن أعرض عليه مساعدة؟ لا يمكنني ذلك.

تحينت الفرصة. حدثته عن مشاريع قادمة أفكر فيها. سألته أن يحمل مبلغاً كبيراً من المال أمانة عنده.

نظر في عيني مباشرة، وغاص في أعماقي. بدوت أمامه صغيراً ضئيلاً. قبل أن يرد. ربت على كتفي: كلنا على كف الكريم. ضع نقودك في البنك.

من فرط اضطرابي وضعت النقود بين يديه: لكنني اخترتك.

قام من مقعده. طلب من مندور الذى يفع عوده، وكان يزوره ليطمئن على أحواله أن يأتي بأوراقه من درج الماكينة.

بسط الأوراق كلها: الفواتير والإيصالات والصكوك الموثقة. قال لي وحكمته تطوقني وتغمر قلبي بالدفء: هذه اليد كم كسبت وكم أنفقت؟ كل شيء زائل.

حاولت أن أفهمه: لا تحاول معي.

نظر إلى يديه المعروقتين: أنت ابني الرابع. والدك صالح أوصاني بكم جميعاً.

قلت: ولماذا انجذبت وحدي إليك؟

قال وعقله شارد: لأنك تبحث عن الحقيقة.

هل كان حكيماً حقاً؟

قمت وأطفأت النور. خرجت من حجرتي. كانت نوال ترش قطرات الكولونيا على جسدها المتخشب، والمغطى بملاءة بيضاء رقيقة.

رأتني أنظر إلى الوجه. قالت: ازرقَ قليلاً.

قلت وأنا أهز رأسي مؤمناً على كلامها: فعلاً. هل جاءت زوجة خالي المرحوم إسماعيل؟

قالت منيرة: إنها بالحجرة وقد سألت عليك!

لم أكن أريد أن أراها الآن. كنت فى حاجة ملحة لأن أواجهه بحقيقة المعرفة التى أعتقد أننى أفلحت فى اقتناصها بعد رحيله.

حين أغمضت عينى بعد أن أغلقت باب الحجرة خلفى تراءت لى نافورة مياه ملونة تزغلل بصرى وخلفها بيوت الأحبة، والنوافذ زجاجها ملون ومعشق. فى الأسقف طنافس، وعلى الشرفات حمامات لها هديل مموسق.

سألنى: هل تريدنى؟

قلت وأنا أتابع زورقاً صغيراً من خشب الصندل يدفعه تيار بحرى هادئ فى آخر المشهد: أريدك.

قال وعذوبة ريقه أستشعرها: بُح بما فى قلبك!

قلت له لائماً: لماذا استعجلت الرحيل؟

كان تحت أقدامه أثاث قديم مكدس، وأوعية فخارية مكسورة الحواف، وريش نعام مترب، وأزرار نحاسية مطبوع عليها التاج الملكى، وكتاب الحكمة بالحروف الهيروغليفية، ومقعد قطيفة قوائمه مطعمة بالفسيفساء، وعصا ملتوية الطرف من خشب الجميز، ومحبرة، ومنديل به بصاق دموى، وبندقية «لى أنفيلد» ومشكاة لا زيت فيها. لا زيت مطلقاً!

قلت مجهشاً بالبكاء: وحدى تركتنى. لماذا؟

قال: كل الخواء فى الدنيا!

سألته: لأن الوطن لم يعلمنا الكلام؟

قال وعذوبة صوته تأسرنى: بل لأننا لم نعرف كيف يكون الوطن.

سألته: أأنا على شفا الفردوس أم جهنم؟ صمت وبالغ فى الصمت.

سألته: ما سر تلك الأشياء المنسية تحت قدميك يا خالى؟

ابتسم: عندما تأتى ستعرف كل شىء! ●

الفصل السابع

دمٌ فاسد

أمامي وضعت منيرة فنجان القهوة. هل يمكنني أن أتذوق طعم حبيبات البن الدقيقة؟

أشعر بالضعة وأنا أقف وحدى أقلب الأمور على أوجهها. دون سند من أصدقاء أو أحبة. ذهب الذين أحبهم وبقيت مثل السيف فرداً!

تضعه وتنسحب إلى حجرة الحريم.

هل بإمكان أحد أن يتباكى على ماضٍ آفل، يطويه الإنسان والنسيان؟

هل تعتقد الحاجة محرومة أن أعمامى يأتون للعزاء، وهى التى كانت سبباً فى قطع الجسور جميعها؟

هى التى سعت من أجل اختراق الجدران التى كانت تخفى لحمنا وأسرارنا.

أدخلت فودة الخزرجى يعيث فى حجرة النوم فساداً، وفى حجراتنا سوطًا يلهب ظهورنا العارية.

ماذا أفادها أن ترى البيت الذى عاش فيه رجل كانت تخشاه حيًّاً يدب فوق أرضيته البلاط تاجر فظ القلب، غليظ الحس، يريد الولد حتى لو كان الثمن دمار البشرية فى طوفان نوح؟

هل للموت رائحة؟

أشعر أن أنفاساً غريبة باردة تنبعث من ناحية الباب المغلق تعبث بأمنى.

كيف يمكننى أن أفسر تلك الرؤيا، ممعنًا فى التفصيلات الدقيقة التى اختفت وراء حاجز فولاذى من أصوات مبهمة وصرخات مكبوتة وحشرجة مميتة؟

أوزة بيضاء تسبح فى بحيرة من دم. تغمس منقارها وتلتقط أسماكاً ذات لون وردى تسح الدمع.

هل يجرى دمها فى عروقنا؟

كانت تغيظنا لأن لدمنا زفارة أورثنا أبى إياها. بعد أن اقترنت بفودة الخزرجى قالت بملء الفم: دمكم فيه زفارة!

كان خالد يفهمها أكثر منا جميعاً، يسخر عندما تأتى السيرة: دمك الملكى لا يصلح لشرايين سلالة صالح راغب النجار.

أخاصمه بنظرة تتهيأ للمشاجرة. كيف يجرؤ أن يخوض فى الأمر، وهى تستفزنا وتستنزف قوانا فى معارك تافهه بلا معنى؟

المعركة التى كان لابد أن نخوضها هى إخراج هذا الدخيل.

لو كان معاز ابنًا لهذه المرأة لحملوه على الأعناق وارتفع صوته مطالباً بالجلاء التام أو الموت الزؤام.

يلف خالد شهادة البكالوريوس على هيئة قرطاس، ويضعه فوق رأسه، يطوف حجرات البيت وهو يصيح: يا خالد.. يا هندسة!

يعتلى المنضدة فى حجرة السفرة، يضع قدميه فوق البنورة، يرفع صوته: «الحكاية مش حكاية تعيين.. حكاية البلاوى اللى ورا التعيين؟».

هل لو بقى أبى حيًا بيننا لصرنا على هذا الحال؟

جزر منعزلة لا تسمع فيها لغة سوى النحيب والخرس!

فوق حافة الدولاب يضع شهادته مع الكراكيب وأوراق الكربون المهملة، وإيصالات الإنارة، والمياه، ووثيقة زواج أمى الحديثة من فودة، وصورة أبى بنظرته الحزينة فى نفس الإطار القديم بعد أن سقط شريط الستان الأسود

كان غشيماً. حين استلم خطاب التعيين ارتدى بدلته الأنيقة التى يحتفظ بها مكوية للمناسبات، وذهب بعد أن تأكد من رابطة العنق والدبوس الذى يلمع فصه مشبوكاً بعناية.

ذهب إلى ديوان مديرية الإسكان. بحث عن مقعد خال فلم يجد. بحث فى الحجرات فلم يعثر على شىء. جلس فى «البوفيه» يشرب شاياً. ورأى الموظفين يضبطون ساعاتهم على مواعيد الحضور والانصراف الصارمة.

أول الشهر الجديد وجد اسمه فى كشوف المرتبات. قبض مرتبه وأقسم أن يشترى به أحذية. سألته: لماذا يا مأفون؟

رد ضاحكاً بسخرية مريرة: لأن العقول التى تخطط تشبه تلك الأحذية.

هل أبنى مساكن فى حجرة تكتظ بعشرات المهندسين المشغولين - هرباً من الملل ـ بالكلمات المتقاطعة؟

سألنى: فى عهد الملك فاروق كان الناس حفاة، لكنهم كانوا يعرفون ذلك ويحاربونه أما نحن فمتعلمون، لكن الحفاء انتقل إلى أدمغتنا.

حاولت أن أناقشه فى القضية برمتها. لكنه غلبنى، وانقطع عن عمله شهوراً.

كان يشترى الجرائد كلها ويبحث عن وظيفة خالية فى أية بلدة أوربية. ولما لم يجد اقترض من شكرى مبلغاً كبيراً، واستخرج جوازاً للسفر، وغيّر العملة المحلية بدولارات، ثم غامر بالذهاب إلى اليونان.

كان يعد حقيبة سفره. سألته: هل تأخذ معك كل الأحذية التى اشتريتها؟

نظر إلى طويلاً قبل أن يفحمنى برده: بالطبع لا. مهمتها انتهت يا فيلسوف.

دخلت أمى الحجرة. نظرت إليه مليًا، تأملته مطأطئ الرأس، يجأر

بشكواه لا بصوته بل بنظراته. سألته: هل تطلب طعاماً معيناً؟

استراحت يده على كتفها، ولم يفعلها منذ زمن بعيد. سألها: هل حكمت عليّ بالإعدام إذن؟

لم تفهم مزاحه. أعادت سؤالها: نفسك في «طبيخ» أجهزه لك؟

أمال رأسه وفكر قليلاً. سألني: ما رأيك في «محشي» الباذنجان؟

وافقته، والتيبس تسلل إلى روحي: لا بأس.

انساب خدر لذيذ إلى جسدي وهو يبخ عطره من قارورة زرقاء باريسية الصنع

سألته: من أين أتيت بالنقود لتشتري ذلك العطر؟

هز رأسه وهو يفحصني، وكأنه يراني لأول مرة: لا تسأل في أمور إن تبد لك تسؤك!

كان شكري قد استقل بمنزله الذي بناه منذ عامين، وفتحي استقر في بور سعيد، أما منيرة فقد كانت أختنا الوحيدة وريحانة البيت التي لا تكف عن تعطيره.

صرت وحيداً - بعد فشل زيجتي - وعدت ليكون بوزي في بوز فودة الخزرجي. فهل كبرت فاطمة؟ منذ كم من الأعوام لم أعد أراها؟ هل تصلح لي؟

طردت الخاطر من ذهني قبل أن يتحول إلى فكرة تلح عليّ وتضغط على أعصابي.

قالت أمي بعد أن خرج خالد من الحجرة ليحضر أشياءه: هل ترى صالح؟

رشقتها بنظرة مستطلعة: ابني؟

قالت وخالد يصفر بفمه مارشا جنائزياً: ومن غيره؟

قلت وأنا أشعر بيد الطبيب تمددني على منضدة العمليات الصاج ذات الطلاء الأبيض: لا أريد أن أراه الآن.

كان يشرّح بالمشرط جبهتي، يفصد الدم الفاسد من رأسي بيد ماهرة مدربة.

قالت وهي تحذرني: حاذر أن ينساك!

قلت وأنا أقضم حبة خوخ فاسدة وألوكها في فمي: لا ينسى ابن أباه!

دخل الحجرة وتهيأ للسفر. قميصه الوردي ورابطة عنق أنيقة. لا ينتمي هذا الولد لقبيلة صالح راغب النجار أبداً. كلنا لا نهتم بثيابنا وذلك عكس أمي التي تهتم اهتماماً مبالغاً فيه بالألوان وتنسيقها بصورة مرضية!

هو أكثرنا أناقة ووسامة. لولا أن قلبه قد من صخر لسعى في الأرض فساداً مثل أخيه شكري. لكنه لا يحب النساء، بالرغم من أنه لا يصوم مطلقاً، ولا يصلي إلا الجمعة اليتيمة وصلاة العيدين: عيد الفطير وعيد اللحم. إنه فاسد تماماً. وكأن قلبه معلق - منذ قطعت القابلة حبله السري وربطت سرته - بصفارات البواخر، وشواطئ المدن البعيدة.

انتبهت إلى حقيقة لم تخطر ببالي من قبل. لم يحدث وأن تجاذبت أطراف الحديث مع شقيقي مرة واحدة. كان يغوص في نهره بمفرده، أرى الدوامات تحاصره، وأرقبه يسبح بعيداً عنها، أما عندما يقترب منها فلم أكن أحذره أو أخاف عليه منها.

كنت أعتقد دوماً أنه كائن غريب لا تربطني به أدنى علاقة من أي نوع؟

الأمر يختلف مع بقية إخوتي. فشكري أكرهه ويثير في قلبي ذكريات مريرة، وفتحي لا أبغضه، يضايقني فقط انكبابه على ذاته وشغفه بأوراقه. منيرة أحبها وأخاف عليها من النسيم الرقيق. أما عنايات - أمي - فقد كنت أخشاها وأسعى للانتقام من صفعتها الدامية.

أحاول أن أسلط فى وجهها كشافات الضوء لتنقلب عمياء لا ترى شيئاً فى حجرتها المظلمة إلا صورة لرجل أحبته وذبحته، ثم علقت على صدره النياشين الزائفة، ولقد تسنى لها أن تبيعه عند أول مفترق طرق!

قالت منيرة وهى تنقر بأصابعها الباب: نم قليلاً. الساعة جاوزت الثالثة.

قلت لها: لابد أن يعرف أعمامى.

قالت وهى تزفر بضيق: لا فائدة. لن يأتى أحد.

عصر روحى حزن هائل وأنا أتذكر السبب: ميراث لا يستحق الخصومة، وقضايا المجلس الحسبى والوصاية، ثم القشة التى قصمت ظهر البعير: فودة الخزرجى. حين رأوه يهم باعتلاء فراش شقيقهم الراحل هددوها بالمقاطعة، فأمالت رأسها كبراً، قالت: أحمى نفسى من الفتنة.

قالت جدتى وهى تضمنا صباح عيد بعيد: هل أنتم مرتاحون؟

سكتنا جميعاً، ونظرت تفيدة نحوى تقرص أذنى: لماذا لا ترد يا ولد؟

قلت لها وأنا أنظر فى عبها بحثاً عن كيس النقود: أعطينا العيدية. نريد أن ننصرف!

نظرت حولها فى ذهول، قالت بأسى وقلبها يحترق، لكأننى أبصر الدخان يتصاعد كثيفاً: باعتكم عنايات. منها لله!

قلت وأنا أبسط يدى: يا جدتى. أين العيدية؟

نظرت إلى عمى المتولى الذى كان يجلس صامتاً، يحرك حبات مسبحته الكهرمان: الأولاد لا يزورون جدتهم إلا من أجل النقود. زرعت عنايات فى قلوبهم الكره.

أشارت، بإصبعها نحو سباطات بلح معلقة فى الجدار: كلوا، وخذوا معكم ما تشاءون.

قال عمي الصفتي: لن يخرجوا ببلحة واحدة. أليس زوج أمهم صاحب وكالة؟

قال خالد: سأذهب.

قلت: انتظر.

أمسكه عمي كامل من ذراعه، كان طيباً وحنوناً ويشبه أبي في صورته الشمسية التي نخفيها تحت الوسادة: خذ العيدية. وتعال في أي وقت.

وضع في أيدينا المضمومة - غصباً - قطعته الفضية وهو يعبث بيده في شعورنا ويقبلنا

قالت تفيدة: لا تنفقوا تلك النقود في «الهلس».

صحت في وجهها وأنا أقبض على العملة الفضية بقوة: وهل دفعت شيئاً؟

قال عمي المتولي: أولاد غير مؤدبين.

انزوت منيرة خلف الكنبة تنهنه. قالت في غلظة: البركة في السفيرة عزيزة أمهم!

قلت لإخوتي ونحن نخرج من البوابة الحديدية: زيارة ماسخة.

كان عمي المتولي يعوى في وجوهنا كذئب. حاصرنا بأنيابه الحادة ومخالبه.

قال معاز إن كلباً أنشب مخالبه في ظهره العارى، ثم غطسوا رأسه في الماء البارد ثماني مرات. طلبوا منه أن يعترف بأسماء مجموعته. ولما كان قد نفض يديه من الأمر منذ سنوات فقد راح ينطق بأسماء أي أشخاص يردون على ذهنه بالصدفة.

أخرجوه وأجلسوه على مقعد هزاز، من خلفه حائط يبرز منه مسمار حدادى بحيث تصطدم رأسه كل مرة بطرفه المدبب. طلبوا منه أن يكتب بيده الأسماء التي ذكرها.

سألته بارتياع : هل كتبت ؟

رد بسخرية مريرة : نعم . كانت أسماء المرشدين الدين وعتهم ذاكرتى منذ أيام الكلية . كنا نعرفهم بالاسم ونحتاط منهم .

حين قرأ مأمور السجن الأسماء ، أرسلها إلى الإدارة العامة وهو يمنى النفس بترقية عاجلة . بعد أيام جاء مفتش المباحث ليؤنبه . قال له أمام صغار الضباط :

متهم داخل مملكتك يضحك عليك .

بعد أن انصرف أوسعوه ضرباً وركلاً ، واعترف .

هل آن لى أن أعترف أننى صرت أخشى الموت يا معاز؟

أخشى أن أواجهه ، والمشاعل التى حملناها قد انطفأت بعد أن هبت العواصف من كل حدب وصوب . والأكف التى رفعت فى مظاهرات الشتاء ضعفت وتخاذلت . سجى الليل ، وغبش المصابيح يمنح قلوبنا الوهن .

ابتلت عيناى بالدموع ، وأنا أتذكر صالح بعيداً عن دفء أحضانى .

كنت قد أقسمت لمعاز أننى سأخوض به بحيرة المنزلة الضحلة . أجعله يقبض بيديه الصغيرتين على الطمى اللزج ، ويبحث عن الأسماك ، يقطف زهور البشنين الجميلة . سأفتح له السحارة وأخرج له كل نفائس أبيه وأضعها بين يديه . سيلهو يا معاز ويده تحرك عقد اللؤلؤ المقشور . سأهرول لأحضر قرط الذهب الذى يلمع فى وهج الشمس .

كان علىّ أن أفى بقسمى ، لكنها أخذته وقالت له : أبوك مات .

لم تمنعنى من رؤيته بل منعتُ نفسى . مزقت آخر مسرحية كتبتها لأننى فى المشهد الختامى اشتريت مسدساً وصوبت فوهته نحو أبطالى جميعهم ، وتركت أجسادهم مضرجة فى الدماء .

غفوت قليلاً ، لأن يدها راحت تهزنى . قالت لى وهى تهمس فى أذنى برفق :

كنت تصرخ!

كانت الرؤية ضبابية قبل أن تخرجني من معمعة الاقتتال. حين حاصرتني الجياد وعلقوا حبلاً يتدلى من شجرة جميز - مثل تلك التي كنا نتسلق جذعها بالقرب من ضريح (المظلوم) - صحت: انتظروا هي قادمة.

لكنهم صمموا على شنقي. طلبت من جدتي تفيدة فدية مالية ضخمة ليوقفوا التنفيذ

أرسلت المتولي الشرير بجرة مليئة بالخنافس السوداء، أمالها بعد أن نزع الغطاء، فخرجت تسعى نحوى.

قالت عنايات: اشنقوه.

منيرة بكت وخلعت أساورها وقرطها وخاتم العقيق: اتركوه. تلك فديته.

امتقع وجه خالد وهو يراني مساقًا إلى حتفي. لوح لي بيده كي اتبعه: تعال معي. البلد ليس بلدنا.

تساءلت (سليا) وهي ترقب المشهد بذهول: أين وثيقة حقوق الإنسان؟

كان معاز يعرج والكلاب تنهش بدنه. صفعوه كي يعترف. ذكر أسماء موتى وأحياء، مرضى وأصحاء. تذكرني، ختم اعترافاته بأنين متحشرج، صعب أن يتركهم يخلعوا أظافره: «عبدالعزيز صالح راغب النجار». أنفه يقطر دماً.

كان الحبل قد التف حول رقبتي ورأيت البنات يندبن حظي العاثر ويبكين:

سوسن ومنى، عواطف ونشوى، وهاشمة.

في اللحظة التي هزتني بيدها كنت على وشك الصعود، وكان من الصعب أن أفلت من مصيري.

صاحت ثانية: كنت تصرخ. خفت عليك!

قلت لها هل تذكرين عمى كامل؟

قالت على الفور ومن ينسى هذا العم الطيب؟

سألتها هل تعرفين أن ساقا مطاطية قد ركبت له؟ وأن «بلية» من البللور قد ثبتت فى محجر عينه اليمنى؟

ردت مذهولة عرفت ذلك فى حينه. ما الذى ذكرك به الآن؟

امتقع وجهى ونداءات خشنة مبحوحة تعبر سطح القناة الهادئ يموج الماء، وتبتعث ارتعاشات ضوء خافتة. هل حكى أحد رفاقه أم حكى لأبى فى قبره؟

حين حمل على كتفه مدفع الآر بى جى وتقدم لتطهير مواقع المشاة المعادية أفلح مع سريته فى تنفيذ المهمة. تقدم مع أفراد فصيلته لاحتلال موقع استطلاع على مقربة من أجناب سرايا الـم.د المعاونة.

كانت أقدامهم تغوص فى الرمل، ووهج الطلقات الكاشفة تستبيح الليل وتدفعه مدحورا. فى خطوة لم يعمل لها حسابا داس على لغم مدفون فى باطن التبة. فأطار الجسد، وتقطعت شرايين الساق، وذهبت عينه

جاءت سيارة جيب فأخلت الجرحى، وعاد إلى مستشفى القصاصين العسكرى

كان ينزف، والمارشات العسكرية تضغط على صدره بنقر العصا الخيزران على غشاء الطبلة الرقيق

من تلك اللحظة ظن أنه الموت. فتوارى خجلا لأنه سيقابل أبى. وسيعاتبه لأنه لم يحرص على رعايتنا كما طلب منه ذلك

كان جنديا احتياطيًا، أرسل خطابه من المستشفى على مدرستى وكنت قد استلمت تعيينى منذ أشهر قليلة فلم تصلنى الرسالة إلا بعد انتهاء الحرب

كانت كتيبتى المقاتلة فى القطاع الأوسط من الجبهة. وكان يمكن أن يصيبنى اللغم ذاته لكن قدمى هبطت بعيدا عنه على بعد بوصة

ونصف، فكُتب لى عمر جديد.

وكان من مهامى القتالية كجندى إشارة أن أحافظ على تردد ذبذبة معينة لأتلقى الرسائل وأفك شفرتها من قيادة اللواء الميدانى.

حين انفجرت دانة الهاوتزر لتطحن عظام ولحم فصيلة الإشارة نجوت بمعجزة إلهية. كنت قد زحفت بعيداً عنهم لأقضى حاجتى. عدت ولملمت أشلاءهم.

قال لى الصول بركات: العمر واحد والرب واحد. هو الذى أراد أن تبقى. هل كان بيدى أن أبقى قليلاً لأموت معهم بنفس القذيفة، لماذا فررت إذن؟ بعد انقضاء العمليات، ووقف إطلاق النار، وتدخل رجال الـ«U.N»؟

أدركت أننى لم أعد أخشى الموت. لقد عرفته غادراً وعنيفاً وبلا معنى.

يأتى بخطواته المهيبة، يشتهى الأرواح، ويعصف بالأجساد. يطيب له أن يعصر الروح لتنهنه وتطلب منه أن يمنحها زمناً إضافيًا. فيراوغ ويطعن طعنته النجلاء، بشظية أوحد موسى أو دخان كثيف أو ماء عميق، أو اختراق طلقة للجمجمة.

قالت: آخر مرة رآه عبدالسلام يبحث عن وظيفة خالية دون جدوى.

قلت: لقد ذهب إلى الكويت حيث السيارات الفارهة والدشداشة وأكوام المال.

أعادت سؤالها: بعينه الزجاجية وساقه المطاطى؟

هززت رأسى: نعم. نعم.

أعادت سؤالها الذى راوغت حتى لا يفضح ضعفى، وظل بلا إجابة: ماذا ذكرك به؟

هل أحكى لها عن الموت الساخن الملتهب وسط الضجيج وانفجارات القنابل بينما الموت البارد الغائص فى نعومة يقبع فى حجرة بمنزلنا بكل الهدوء واللطف. لن أحكى يا منيرة! ●

الفصل الثامن

سبت الحزن

أشعر بالإرهاق. إبر دقيقة توخزني. أجهل الموت، ولم أنفذ لجوهره الفذ المرهق القاتم. جنائزي الخطوات، له احتضار بشكل نافورة من ضوء رمادي متصلب.

الموت المتعالي يدب بقوة في الحجرة المجاورة، وأنا أتلصص محاولاً الوصول إلى فهم دقيق لماهيته.

خلع قفازه الأبيض الرقيق، وبدت الأظافر طويلة مدببة تنغرس في عنقي وجلد وجهي المشدود. بلا صوت يخربش أطرافي، ويحاصرني فأهرب إلى المتيقن بحثاً عن المجهول. غامض في صمته الثقيل، ولقد آن أوان السفر، والزاد قليل.

لا أعرف لماذا نرهق ذواتنا بالشكليات والطقوس ونبرات حزن جوفاء؟

إن حياة قد تبددت ولم تعد سوى نهنهات وصراخ شاحب وبكاء آفل وتحديق في الوجه الذي بدا مستسلماً وراضياً، وعزوفاً عن التعبير عن أية مشاعر مختزنة.

كان ثمة شيء داخلي ينهار. لم تفلح حبيبات القهوة في منع هذا التدهور، فالجرف الذي بدأ في التحرك والانهيار سرسب ترابه القديم، وهوى في صدمة لها صوت مكتوم.

هل يعني ذلك أن انقطاعاً قد حدث؟ أم أن الحلقات تتصل، وها هي حلقة رمادية باردة تفضي إلى حلقة أخرى لها لون زاهٍ؟ ذلك الفراغ هل يحمل معنى؟

إنه يضع قناعاً له مهابة. العيون التى طالما حدقت وحملقت ونظرت لم تعد تعبأ سوى بالنقطة الأخيرة التى انعدم فيها الفعل. إذ إن السطح الراكد تمور تحته حياة غير مرئية، حيث الأفعال المضارعة لا يمكن الكشف عنها. فهى قاصرة ومرتبكة الآن فقط. وهى التى كانت ترتع فى الجسد والحركة والصوت ومساحات الصمت. لا ضوضاء، ولكن سكون ماسخ. قالت منيرة بصوت مبحوح: فتحى أتى.

كيف أمكنه أن يرتب أموره ويأتى بمثل هذه السرعة؟

قلت لمنيرة: هل أتت حياة معه؟

هزت رأسها هزات رأسية سريعة فأدركت أنه أحضرها. مددت يدى إلى سلة خوص قديمة أسفل سريرى، ومضغت قطعة خبز يابسة.

رأتنى، وسألت: هل أحضر لك طعاماً؟

طقطقت عظامى وأنا أتثاءب: أبدا. كل ما فى الأمر أننى أريد أن أحرك فكى. حين ذهبت إليه بمفردى كانت النسوة فى الجبانة يملأن سلالهن بالقرص والمنين والتمر. وكن يتحلقن القبور، ويفترشن ملاءات سوداء، يثرثرن فى خفوت، ويقلبن الماضى وينبشن فى غير كلل عن ذكريات تجمعهن والراحلين.

الشواهد رخامية والأهلة بلون أخضر. وقفت أمام قبر خالى إسماعيل أمسح بيدى ذرات الأتربة. اختنق صوتى وأنا أعاتبه: يا أبا صبرى. لماذا أضأت الإشارة الخضراء وذهبت إلى هناك؟

عبرت مساحة من صمت وواجهنى عمود حجرى من جرانيت عليه نقش كتابة هيروغليفية، حاولت أن أفك طلاسمها. أشار لى بيده أن أكف عن المحاولة. سألنى أن أنتظر قليلاً وسيأتى من يفسر لى كل شىء.

كان نهوضه مفاجئاً. بانت على ملامحه كبرياء تليق بفرعون: غطاء رأسه يغطى الأذنين، هامته فارعة، مؤتزر بنسيج كتانى سميك يغطى المنطقة بين الخصر والركبتين. وفى عينيه نظرة واثقة وفطنة. لوح لى

بيده فنهضت خاشعاً متأنياً.

هل أجرؤ على مخاطبته؟ شجعني خالي إسماعيل بابتسامته المطمئنة. تحرك لساني في حلقي. قلت وأنا أستجمع شتات أفكاري:

هل هناك أمل في أن يعود؟ لقد تبعثرنا جميعاً عندما فارقنا. حملوا نعشه فبدا نقطة صغيرة في بحر البشر الهائج. لطموا الخدود ولبسوا السواد، وظهرت صورته على مساحة الصفحة الأولى بأكملها. ثم نسوه، نفضوا أيديهم من الأمر كله، وكأنه لم يكن بينهم يوماً قائداً وزعيماً!

قال خالي إسماعيل: صوته الذى زلزلني يأتيني حتى اليوم.

قال معاز الذى اقتحم المكان فجأة بطيفه المراوغ: هو سبب كل الكوارث التى نحن فيها. كان يظنهم خلصاءه.

كانت نظرته محددة، ونبرات صوته حازمة: هذا ليس أوان المعاتبة. تبدد طيف معاز وهدأ انفعالي. صار ثلاثتنا في مواجهة هذا الماضي القريب الذى انبعث متربا ًوبارداً. قال: لقد محوا اسمي من فوق صرح معبدي المقدس!

قال وهو يحكم تاجه الملكي فوق رأسه: هي عادة مصرية خالصة.

هز رأسه وهو يحتج بصوت مرتجف غاضب هذه المرة: الكهنة هم الذين زينوا له الأمر. خافوا على حنطتهم وأوعيتهم المليئة بزيت الزيتون، وأفدنتهم التى ترعى فيها قطعان الأبقار. أرادوا أن يعموا بصره ولقد أوقعوه في حفرة حفروها بأصابعهم.

قال خالي إسماعيل واثقاً: خفف عنك. لن يصح إلا الصحيح!

سلم عليّ فتحي بحرارة لم أتوقعها. سألني إن كنت غاضباً منه.

قال إنه لم يتوقع أن تموت أمه في هذا التوقيت بالذات.

أكد لي أنه متعب وصدره مليء بالأسى، وأنه لم يدرك أن الموت من الممكن أن يكون قريباً كما يراه الآن!

قلت له: أنت أقرب الناس إليّ. فما الذى أبعدك عني؟

لماذا صرت بعيداً وغريباً ؟ أين روحك المرحة وقفشاتك ؟

قال بنبرة يشوبها أسى : هى التجارة . امتصت ماء الحياة من روحى .

ضحكت : أم أن حساباتك هى التى سجنتك فى قبو مهجور كله أرقام متصارعة ؟

ضحك وهو يحتضننى من جديد : وكأننا لم نفترق .

غمرت روحى نشوة غريبة . واربت منيرة الباب ودخلت . ابتسمت : والله زمان !

قلت لها وأنا أقدم لها جريدة قديمة رأيتها فوق حامل خشبى يعلوه مذياعنا الخشبى القديم : هل يمكنك أن تصنعى عروسة ورقية مثلما كنت تفعلين ؟

قالت وهى تبعد يدى بالجريدة : رائق !

قال فتحى : لماذا لا تفكر فى تجديد نمط حياتك . اخرج من حجرتك ، وتعال إلى بورسعيد . يمكنك أن تبدأ حياتك من الصفر . دعك من الفلسفة وتدريسها الذى لا يطعم فماً ولا يفتح منزلاً .

سكت برهة . واصل أفكاره : يمكننى أن أحصل لك على توكيل شركة عالمية تغرقك فى الذهب .

كان يتحدث بحماس حقيقى أعرفه عنه . وكانت عروق رقبته نافرة .

تتأمله منيرة بزهو - وتقارن فى ذهنها بينه وبين عبدالسلام - هزت رأسها مشجعة إياى : عندك حق . لماذا لا تفكر فى الأمر جدياً ؟

سألتها : وهل يحل الذهب مشكلتى ؟

طلقت زوجتى ، ونأى عنى الولد ، أما روحى فضائعة . ليس الذهب أو الفضة .

استرد فتحى روحه المرحة واقتنص قفشة : هو الحديد إذن !

إنك لترفل فى خاماته وعروقه صلباً وزهراً ومطاوعاً . هذا ينفعك وحدك .

هو الآن يمسك ذراعى ويصعد سلم المحطة التى يغطيها الضجيج، وتموج بحركة مجنونة صاخبة. أصوات المسافرين، ونداءات الباعة: أمشاط. علب كبريت. لبان. قطع شيكولاتة. خطوات الشيالين وعلى صدورهم القطعة النحاسية اللامعة تحمل رقماً. صفارات القطارات، مكبرات الصوت المكتومة، البوفيه، الموائد المصفوفة على الرصيف ومفارش بلونين: أحمر وأزرق. ونجمة المشروب الذى كثيره مسكر.

قال وهو يلكزنى: إياك والسياسة مرة أخرى. ها أنت تخسر سنة دراسية وسيناء مازالت محتلة باليهود!

قلت وأنا أهرش رأسى: سيخرجون.

قال وهو لا يريد أن يستفزنى: حركة التاريخ التى تتحدث عنها لا تغيرها أصواتكم.

لكن جنازير الدبابات يمكنها أن تقوم بالمهمة وحدها!

كانت النسوة يلبسن جلابيبهن السوداء المطرزة وعلى رءوسهن سلال خوصية يحملنها، وفوق أكتافهن أطفال ممصوصون بنظرات زائغة. والرجال يمضون نحو أرصفتهم فى هرولة. قال ليحسم الأمر فيما بيننا: نحن فقراء. وما حدث قد حدث لأننا متأخرون ألف عام.

بحثت عن الجنود فى أفرولاتهم الكاكية فرأيتهم يحملون مخلهم، ويتسلقون قطار الإسماعيلية الحربى. ظهر رصيفهم على غير ما تبدو الأرصفة الأخرى، يضج بالحركة الزائدة، ويفصح عن فتوة أجسادهم. يكاد جسم القطار الفضى يختفى تحت زيهم الكاكى الذى غطى السطح ومعظم النوافذ والأبواب.

هززت رأسى وقد ازددت اقتناعاً بما سوف يحدث: سنرى.

كان قطارنا عجوزاً، مصابيحه مطفأة، ومقاعده الخشبية محطمة. كدنا نتعثر فى الحقائب والسلال الموضوعة فى الطرقات.

نقرت حياة الباب بأصابعها: كيف حالك يا عبدالعزيز؟

كـانت مـرتدية الأسـود، وتغطى شـعـرها بمنديل من نفس اللون.
سألتنى سؤالاً مباغتاً:
لماذا لا تزورنا فى بور سعيد؟
حاولت أن أبدو مهذباً ودوداً: أنت تعرفين ضغوط الحياة ومشاكلها!
أصـــرت أن أذهب إليـــهم: لابد أن تأتى. الأولاد يريدون أن يروا عمهم.
سألتها محاولاً أن أحافظ على جو الود: وهل تقدمون لى أطباق الجمبرى؟
قالت وهى تهز رأسها مؤكدة: كل ما تطلبه. لست بخيلة مثلكم.
كنا نراوغ الموت بالحديث بعيداً عن نطاقه. شعرت للحظة أننا خارج الزمن، أو أن الموت هو الذى صار وحيداً فى مواجهتنا. نحن نتنفس ونتحرك، يعاتب بعضنا البعض، ونمضى فى مواجهته بلا ملل أو انهزام.
سألتنى حياة: قابلت زميلة كانت معك فى الكلية. لكننى نسيت اسمها الآن. فرحت كثيراً عندما أخبرتها أن شقيق زوجى هو عبدالعزيز صالح. أتذكرها؟
هززت رأسى: جائز. لكننى لا أذكر شيئاً.
نظرت إلى ساعتى. قال فتحى: حاولت أن أحضر بسرعة. أيقظنا الأولاد، وألبسناهم ثم تركناهم عند جدتهم. لقد أصابها الخوف ونحن نطرق الباب عليها فى هذا الوقت المتأخر من الليل.
قلت: للضرورة أحكام. وكثيراً ما تصادفنا مواقف مفاجئة.
علّقت حياة: لم يكن عندى ثوب أسود. اضطررت أن أستعير هذا الثوب من جارة طيبة لى. ألا يبدو «واسعاً»؟
قلت: لا.
يمتزج الكلام بإيماءات معبرة. سألتها: هل كانت معى فى نفس القسم؟

تنهدت متعبة: نعم. تذكرت اسمها الآن. نشوى.

قال فتحي وكأنه يغلق أبواب متجره: هيا بنا لنجلس فى الصالة

قلت أهمس لنفسى: نشوى! هل يمر الزمن بمثل هذه السرعة؟

كانت تسير إلى جوارى فى حديقة الكلية، والزهور متفتحة وذات ألوان مبهجة. المقاعد كلها مشغولة. جلست على العشب الطرى بعد أن أزاحت بعض الحصى.. بسطت بيدها أطراف فستانها: اجلس

انطلقت تهمس بقصائدها الفرحة المعذبة. قلت لها بعد أن استمعتْ لصوتها الرائق الرخيم: رومانسية غادرت عالمنا!

قالت تهز رأسها: ليست تهمة!

قلت: لا أقصد. لكن أين الوطن. هل نفصل ذواتنا عنه؟

لم أكن أوبخها. كنت أريد أن أعثر فى شعرها على ذلك الشىء الضائع الذى أتعب قلبى.

قالت تدافع عن نفسها: لا أكتب إلا ما أشعر به.

اقتنصت الفرصة: جميل. ألا تشعرين بأننا مهزومون؟ تلك الصفحات التى سودها قلمك ألا تعبر إلا عن العصافير والزهور، والقلوب التى تدمى للفراق. هل هجرنا وطننا؟

بدت غير مقتنعة بحديثى. نهضت فجأة. أخذت بيدها فشعرت برجفة تسرى فى شرايينها. سرنا إلى النصب التذكارى فى قلب الساحة. أشرت بيدى: شهداء الجامعة!

قالت وهى تعاتبنى: أعرف هذا.

دقت الساعة، فنظرت إلى الأشجار السامقة. سألتنى وقد تندت عيناها بدموع لم أرها من قبل: إذا فكرنا فى الوطن فلن نحب هل يمكنك أن تحبنى وأنت تشعر بالهزيمة؟ كيف يتأتى ذلك؟

كان سؤالاً مفاجئاً. أردت أن أدفع عن نفسى التهمة. قلت إذن نهرب؟

قالت ـ وكنا قد سرنا من محاذاة السور، وصرنا فى مواجهة الشارع المزدحم بالسيارات ـ بأسى: نعم، إننى أهرب. ألا تفعل ذلك؟

انحسر حزنى، وملأ المكان زقزقة عصافير كثيرة. أجبت صادقاً: لا يمكننى أن أفصل حبيبتى عن الوطن يا نشوى. هل تفهميننى؟

هزت رأسها غاضبة: ليس تماماً.

كان صوتها يصل إلى عقلى خافتاً بإيقاع جنائزى رتيب. وكان وجهها جميلاً وشعرها ناعماً، والدنيا من حولنا مغردة زاهية. لكن الهزيمة تسللت برمادها فى النفوس فأفسدت مشاعرنا. وكان السبت. هل هو سبت الحزن يا نشوى؟

لم تأت طيلة أربعة أيام. انتظرتها فى قاعة المحاضرات، وتركت لها مكاناً. وفى البوفيه، وفوق العشب خلف المقاعد. لكنها لم تأت.

حين عادت صباح الخميس أدركتُ أنها لم تعد لى. كانت مواجهة بلا معنى.

أدرك الآن أننى حملتها أخطاء الآخرين. كنت أراها تفترش نفس المكان فى الحديقة تتأمل أوراقها، ثم تمزقها، ولم أجرؤ على التدخل مرة أخرى.

سألنى فتحى: هل عاد الدكتور كريم من الخارج؟

قلت بغير حماس: اسأل الحاجة محرومة.

قال مستنكراً: يقضى عمره كله خارج مصر؟

داهمتنى رغبة حادة فى الضحك. أنت الذى تقول هذا يا فتحى. ألم تكن فرحاً عندما جاء شكرى بهداياه، وتمنيت أن تذهب وتقضى بقية عمرك فى تلك البلاد ـ التى تطعنها البداوة بخناجر من رمل ـ كمواطن من الدرجة الرابعة.

أليست أمنية غالية للعائلة أن تقطع جذورها بالأرض، وتذهب حيث تلال الذهب والثراء المفاجئ. ذلك الفتات الذى يلقى إليكم فى مقابل أن تصبحوا أصناماً لا ترى ولا تسمع ولا تتكلم!

قالت أمي تمتدحه في غيابه: الدكتور كريم هو الذى شرف العائلة.
سألتها باستنكار: في أي شيء شرفها؟
هوت بكفها على صدغ المنضدة الرخامية: بعلمه وعمله.
قلت لها في لوم: رقيق القرن العشرين. ابن اخيك يا سيدتى له كفيل لا يمكنه أن يتحرك إلا بموافقته.
نظرت نحوى في قلق: له مسكن مؤثث، وسيارة، وقد ابتاع قطعة أرض في «السنانية» وحين يعود سيبني عمارتين.
قلت وأنا أحرك في إصبعي الدبلة الفضية: حتى لو اشترى الدنيا كلها فهو الخاسر.
قالت منيرة وقتها: ليته يعود. ألا يكفيه عشرة أعوام؟
أيقنت أنها كانت تريده. تندب حظها دون أن تعي.
حين يجلس في الصالون يشرح لها دروس الكيمياء ترتدى أجمل ثيابها، وتعقص شعرها بفيونكة تبرق بلون الفوسفور الأصفر. تدخل أمي بكوب الشاى. تبتسم وهي تربت على كتفه: ربنا يحرسك لشبابك، ويخليك لنا! لا تريد أن تلمح أكثر من ذلك. ومنيرة تغرق في خجلها، والدروس صعبة. هل وعدها بشيء. هل أمكنه أن يقبلها أم أنه كان يعرف أنه قد خطط لمستقبله بذكاء، وأن تلك العواطف العابرة لابد أن يجتثها، ويدوسها بكل صرامة ليحقق: الثراء والجاه؟
هل كان فكره منشغلاً وهو يقسم قسم (أبقراط) في طراز السيارة ومساحة الأرض الفضاء التى عليه أن يمتلكها، وزوجته ذات الحسب والنسب التى تليق بمهنته ذات الدماء الزرقاء؟ وهل للمهن فصيلة دم معينة؟
ارتدت منيرة ثوباً كحلياً بسيطاً يليق بحزنها الذى لا يشعر به أحد سوى زوجة فودة الخزرجي. فشلت لعبتها وأدمت قلب البنت.
قالت محرومة وهي تحتضنها: عقبى لك.

كانت منيرة تنزف حزناً. راقبتها وهي تجلس في الصف الأخير بجوار الحائط. تحك أظافرها في طلاء الجير وتتأمل اللون.

أحكم رابطة العنق، وزفته الدفوف، وسافر ليكمل سنوات إعارته التي انتهت فراح يجدد عقده دون أن يفكر في الرجوع إلا في إجازات قصيرة في الصيف. يبعث خلالها الحسرة من جديد. لكنها حسرة خبت جذوتها تماماً.

حين فكر أن يقترن بواحدة من بنات الحاج فارس شهقت نساء العائلة: معقول؟ ذهب الحاج وصفي ومعه الأسطى إسماعيل، وصديق لهما هو المعلم مراد.

اقتحموا القلعة الأسطورية الحصينة. كنا نترقب فشلهم وعودتهم مدحورين مهزومين ،لكن عائلة الحاج فارس خيبت ظنوننا. رحبوا بالعريس لأنهم يشترون رجلاً. عقليتهم التجارية أسعفتهم هذه المرة. وحين وضع الدكتور كريم ذراعه في ذراعها وانطلقت الزغاريد في كازينو «الهرم» تبخرت آخر أحلام منيرة.

لم تكن أميمة جميلة، ولم تكن قبيحة، لكنها من عائلة واسعة الثراء. يتاجر أبوها في القشرة ولديه أذونات للتصدير والاستيراد.

أعد الحاج فارس مأدبة لم يرها أحد من قبل في عائلتنا. كانت الفرصة مواتية لشكرى كي يمارس هوايته في ضرب الرقم القياسي في التهام شرائح اللحوم وصدور الحمام وأوراك البط.

كانت منيرة تبكي في صمت. دون دموع تبكي. وكنت أعرف ذلك. يدها لا تمتد لأي طعام. خالد ظل يرقب الأمواج القريبة من الكازينو وينصت لهديرها حين ترتطم بالصخور الصماء.

كنت أقف في أقصى زاوية ممكنة أرقب كل شيء. ذلك الحلم الذي زينته أمي لها، وها هو يتسرب بكل سهولة.

قالت أمي لها قبل أن يخرجا: كل شيء قسمة ونصيب.

انشغلت منيرة فى تلميع حذائها، ولم تعقب بكلمة واحدة.

قلت للأسطى إسماعيل: لماذا ذهبت معه؟

رد عليّ وهو يراجعنى: الواجب يا عبدالعزيز!

قلت: إنهم أثرياء فكيف رضوا بنا. هو لا يعرفها وليست بينهما قصة حب. كيف يتزوجها؟

قهقه ضاحكاً: لذلك سينجح ذلك الزواج. لا احتمال للفشل مطلقاً. لا مكان للعاطفة هنا.

سألته باستنكار: معقول يا خالى. معقول هذا؟

خرجت الحاجة محرومة من حجرة الحريم. سألتنى: أين اتجاه القبلة؟

أشار لها عبدالسلام. سألت نفسى: هل من المعقول أن تنسى بمثل هذه السرعة؟ ألم تكن تتردد على منزلنا كل يوم مرتين؟

انهمكت خالتى نوال فى تنظيف أدوات المطبخ، وإعداد أغطية السرير. كانت الأطباق والأكواب مصفوفة بعناية فى الرّشّاقة.

قلت لمحرومة: إن الفجر لن يؤذن له إلا بعد ساعة.

قالت: أعرف هذا. ولابد أن أتوضأ الآن. فقد تنقطع المياه.

نظرت صوب حجرتها. كان الباب مغلقاً. وكانت فراشة متألقة تطير فى فضاء الصالة منبهرة بالضوء، ولا تنى تحرك أجنحتها محلقة هنا وهناك.

كان البساط الممدود فى الصالة زاهيًا، وكنا نحاول قطع الوقت بأحاديث مختلقة عن أمور ليست ذات أهمية.

لم يفكر أحد فى النوم. لأن ذلك سيذكره دون شك بحقيقة المأزق الذى يحاول أن يتخطاه ويراوغه بالكلام والصمت المفعم بالإيماءات.

بعد أن أوغل الليل فى رحلته، بدأت خيوط الفجر تُنسج على مهل. وكان إيقاعه الرتيب البارد يدخلنى فى عالمه دون إرادة منى ●

الفصل التاسع

أساور من ذهب

بنصرها الأيسر يحمل خاتمًا ذهبيًّا. أحاول أن أتذكر لمن يكون هذا الخاتم. لفودة الخزرجى أم لأبى؟

على مدى الساعات المريرة الفائتة انهمرت فى عقلى عشرات الأسئلة الصعبة.

وهأنذ أدخل حجرتها لأحكم وضع الملاءة حول جسدها. قل أعوذ بالله من شر الوسواس الخناس. باغتنى سؤال مدبب كنصل خنجر عن الذهب الذى كانت تتحلى به قبل أن...

لا أريد أن أنطقها. كلمة مؤلمة لها برودة الثلج لا أريد أن أتفوه بها حتى لنفسى.

هل أنا فاسد وابن عاق لا مشاعر له؟ أتردد بين لا ونعم.

الذهب الذى كان يثقل ساعدها الأيسر، أما زال موجوداً؟

كشفت اليد فبانت الأساور مطفأة غير مجلوة، لا بريق لها البتة، وكأن الموت البارد قد انتقل إلى عياره فخبا تألقه.

كانت تقف فى المطبخ أمام الرف الرخامى بجوار الحوض، ويدها مغطاة برغوة الصابون سألتها: انتصاف ذهبت إلى بيت أبيها؟

شطفت يدها فى تمهل: اتركها!

- أخذت حقيبة ملابسها، وحين عدت لم أجدها.

- لا تحمل همًّا.

- تركت رسالة مقتضبة تخبرنى بأننى إنسان معقد.

معها حق!

كدت أنفجر فيها لأذهب عنى غضبى، لكن ما ذنبها؟

- صالح لا يمكننى أن أنساه. طيفه لا يفارق مخيلتى.

- ستتعود ذلك.

- هل تتوسطين فى الأمر؟

- فعلتها أكثر من مرة. لم يعد ذلك يجدى.

- لقد سببتها.

- كل الرجال يسبون النساء فى لحظات غضبهم. وآخر الليل ينقلب السباب إلى وله.

- البيت خال، لا حس له.

- كلام فارغ.

- سأذهب لخالى إسماعيل

- إنه مثلك لا يحل ولا يربط.

استدارت تواجهنى. حل الصمت بيننا. كنت أحصى لحظات السعادة التى اقتنصتها من فم الأسد/ الزمن. قلت: انتصاف عصبية.

سألتنى بلا مواربة وهى تحدق فى عينى دون أن تطرف: ألا تشبعها؟

صعقت لصراحتها. فهمتنى خطأ. أفسحت لصمتى مكاناً. أيمكن أن تتصور أن هذا سبب كاف لأن يتمزق شمل أسرة؟!

اعتقدت أنها تريد أن تهيننى. كانت السماء غائمة وكأن قبر أبى ينفتح فى تلك اللحظة ليشدنى بيده إلى التجويف الأسود المعتم. صرخت فيها: أهذا ما يهمك؟

ركضتُ فى سراديب معتمة، أعادت اتهامها: لماذا تهرب؟ واجه الأمر.

أحسست بساقىَّ لا تقويان على حملى. الأمر على غير ما تظنين يا زوجة تاجر وكالة البلح. لست بعنين!

ابتسمت نصف ابتسامة. إذن ستعود ثانية الأمور المعلقة بينكما سرعان ما تسوى. كررت لنفسي ذات الاتهام في حجرتي المغلقة وأردت أن اتحلى بشجاعة الاعتراف بتقصيري. اكتشفت أنها كانت كأنثى تتلوى، وتلهث تحتي كلبؤة شبقة بل إنها كثيرا ما كانت تبكي، والقميص الشيفون الأحمر ملتصق بصدرها والحلمتان الورديتان قد انتصبتا بينما العرق الغزير ينحدر فوق عنقها، وهي تجذبني نحوها وتتحسس وجهي بأصابعها، تبحث عن شيء مجهول لا تعرفه، يدها تصطدم بأنفي وفمي وشفتي. تقول لي إنها تحبني، وإن الحياة بعيداً عني مستحيلة. تضيق الحجرة وتضيق وهي مغمضة العينين لحظة الارتواء. تشهق: أنت مجرم. كل ليلة تغتالني بهذا الشيء يا عبدالعزيز.

أول كل شهر كانت تخفي راتبها وتقول إنها تكرهني، وإن الحاج عبدالحي لو عرف أنني أطالبها بنقودها لكان له معي شأن آخر

كانت الأيام الأولى قد ذهبت حلاوتها ولم تبق سوى المرارة ورائحة العرق العطن. تشاكسني وفي الليل حينما أقترب منها تدس يدها بين نهديها وتخرج كيس نقودها، وتضعه تحت رأسها أسفل الوسادة. لما انتهيت. قلت لها: أنت عاهرة.

صرخت في وجهي وبصقت على الأرض، ثم انهارت باكية: لن أظل معك!

قلت لها بعد أن هدأت الزوبعة: نقتسم مصاريف البيت. أنت تدفعين الإيجار والإنارة والمياه. وأسدد - أنا أقساط الأثاث، وأشترى لوازم البيت.

كشرت عن أنيابها، وكأن فكرتي كانت هي الشرارة التي فجرت برميل البارود الذي كان يحتل ركنا مهملاً في المنزل أنت لم تتزوجني إلا لتستغلني!

قلت لها: اخفضي صوتك الولد نائم

انسحبت، بينما يدها تخفى كيس نقودها، وهمهمتها تختلط بصراخ متقطع: ابحث عن غيرى لن أبقى معك. وكان القميص الشيفون ملتصقًا كعادته بصدرها.

أردت أن أهدئ الموقف، سألتها وقد ازداد ارتباكى: من أين أحصل على نقود؟ راتبى لا يكفى.

قالت بسخرية واستهجان: كل المدرسين يعطون دروساً.

كانت منكمشة ومخالبها مشرعة نحوى: لكننى لا أقبل أن أعطى!

قاطعتنى بكلماتها القاسية: ماذا تظن نفسك؟ كفى فلسفة.

لم تخذلنى يدى. كانت صفعتى عنيفة. ألصقتها بالجدار. ثم هوت وهى تمسح خيط الدم الناعم.

لا دم عاد يجرى فى الشرايين والأوردة، حملقت فى الأساور الذهبية، واكتشفت أن التمغة مخفاة بمهارة فى الباطن المستدير الأملس.

غطيت ساعدها. ورششت ماء الكولونيا كما رأيت منيرة تفعل. أدرت الأكرة وخرجت.

كان الفجر على وشك أن يتخلق بنوره الغامض المستحيل. تردد صوت المؤذن فى مكبر الصوت وأدركت أن شوطاً طويلاً قد قُطع.

بسطت الحاجة محرومة سجادة الصلاة فى ركن الحجرة وقامت تصلى. نظرت نوال نحوى وهزت رأسها.

كنا متفاهمين. أردت أن أحدثها عن الأساور. خفت أن تفهم كلامى على محمل سيئ.

اقتربت من أذن منيرة. همست: الأساور؟

هزت رأسها وكانت قد عادت من الحمام بعد أن غسلت وجهها ودلكت جفنيها بيدها عدة مرات: لا أفهمك!

قلت لها وكأننى أرتكب ذنباً هائلاً لا يغتفر: أساور أمك الذهبية.

همست: مالها تلك الأساور؟

تمخطتُ، وسعلت مرتين، ازداد صوتى خفوتاً: نخلعها الآن؟

رمقتنى بنظرة مستطلعة، واكتشفت أن الأمر لا يحمل مؤامرة. فقد أحسست بأن وجهى ممتقع. قالت وهى تقابل حيرتى بحيرة مماثلة: لا أفهم فى هذه الأمور.

أشارت لخالتى نوال. فهزت رأسها مقتنعة بعد أن أخذت رأيها: تقول إن عليك أن تقوم بالأمر فأنت ابنها.

ارتجف صوتى: لا أجرؤ.

احمر وجهها: شكرى يمكنه أن يفعل ذلك.

ضغطت على مخارج الحروف: لا. شكرى يتلف أى شىء تمسه يداه.

لاحظت أن محرومة تنظر نحونا فى ريبة: ماذا بكم؟

قالت منيرة: أبداً. يتكلم عبدالعزيز عن ترتيبات الجنازة.

لقد رأى بطرس كل شىء. حين دفنوا «صبرى المر» فى الحفرة بملابس الجندية. أهالوا الرمال. وقرءوا بعض قصار السور. لم يخلعوا سوى دبلته الذهبية وساعته التى تلفت. وضعوا على الحفرة عصا وخوذة مقلوبة.

ولقد واجهنا عساكر الأمن المركزى بعصيهم ودروعهم الرصاصية. عطلنا إشارات المرور، وأطلقت بنادقهم قنابل مسيلة للدموع.

حين انحرف فى الشارع الجانبى لتفادى الدخان الكثيف داهمه اللورى المكتظ بالعساكر المتأهبين للنزول إلى الجماهير لحمايتهم من بطش القلة المنحرفة.

حملنا جثمان عثمان جلالة وكان ينزف بغزارة، وأثر الارتطام فى الصدر، وأنفه يسيل دماً قانياً.

فى الممر الضيق الذى أغلقوه وجدنا مقهى أبوابه مواربة. سجَّينا جسده. اكتشفنا أن النبض يخفت.

صاح شوقى القط: يا أولاد الكلب. إنه يموت.

أشار الضابط بعصاه المدببة الرفيعة نحونا فاندفعت جماعة عسكر

نحوه، جذبوه وألقوا به تحت أقدام الضابط فركله في مؤخرته. وصرخ في وجوهنا التي كانت ترقب الموقف من خلف الزجاج المطلي باللون الأزرق: تقولون انكم رجال. لماذا تختبئون؟

أحضر عبدالغفار ورقة وكتب عليها عبارة سباب جارحة ثم كورها بعد أن وضع داخلها قطعة صلصال محروق من حجر المعسل. قذفها نحو الضابط. انحنى الشرطي برأسه الحليق فتناولها وسلمها للضابط. قرأها فامتقع وجهه. وقاد عملية المطاردة.

قفزنا من المنور المفتوح، وحملنا معنا عثمان جلالة وكان به بقية نبض. تسللنا إلى بير سلم ثم صعدنا الدرج.

قلنا للسيدة التي فتحت: نريد كوب ماء.

أدخلتنا، وقام زوجها ينظر في وجوهنا، وكاد عقله يطير عندما استوعب الأمر. ثبت نظارته الطبية وصرخ في زوجته: ابنك مجيد تأخر اليوم. يا ويلنا إن كانوا قد أصابوه.

اندفع بملابسه الداخلية خارجاً. قالت له: انتظر. لن تفعل له شيئاً. لو أمسكوا بك لبهدلوك.

أسندنا رأسه على وسادة نظيفة منقوشة بزهور بنفسجية. مالت السيدة وقرطها الذهبي يتدلى فيلمس صدره، وهي تنصت لضربات قلبه: الحقوه قبل أن يضيع.

قال معاز: أحضروا تليفونًا. لابد أن ننقذه.

هزت السيدة رأسها بأسى: لا يوجد عندنا تليفون!

أشار الرجل بيده نحو ناصية الشارع: في العمارة العالية التي هناك يوجد طبيب. نظر نحونا وهز رأسه وهو ينظر من الشرفة ليفاجأ بالعساكر تتحلق البيت والبيوت المجاورة، وتبحث في الدكاكين وتسد الشارع: سأحضره أنا. ابقوا مع أم مجيد.

حين عاد ومعه الطبيب كان كل شيء قد انتهى.

أدس يدى تحت المسند، وأخرج قصاصات صحف مصفرة من القدم. تعيدنى لتلك الأيام، وتخلع عن قلبى الرهبة.

لقد واجهته إذن فى ذلك الزمن البليد حيث كنا نعكف على كتابة اللافتات على مساحات كبيرة من البفتة البيضاء. نضمنها صرخاتنا التى انحبست فى الحناجر. الاعتصام، وضربات الهراوات، خراطيم المياه، كتائب الخدمة الليلية، أناشيد سيد درويش، وجثمان عثمان جلالة، والسيدة تبكى الشاب الذى لم تره إلا منذ دقائق، وزوجها يهدئ روعها. يقف فى الشرفة ويلعن من أرسل العساكر. والضابط يشير لعساكره أن ينسحبوا بعد أن انتقل العويل والصراخ من شرفة إلى شرفة وصار الحى فى مناحة.

التفتت محرومة يميناً وشمالاً فى ورع مصنوع. أنهت صلاتها. قالت وهى تهم بطوى السجادة: سيحزن الدكتور كريم عندما يصله الخبر.

التفتت نحوى منيرة وهزت كتفيها: وهل مازال يتذكرنا بعد هذا العمر الطويل الذى قضاه فى جمع الثروة؟

هل هو فى حاجة إلى مزيد من المال ليشترى أراضى أخرى، وسندات مالية؟

هل أميمة فى حاجة إلى أحذية برقبة من جلد الشمواه، ومعاطف لها ياقات من فراء الثعلب القطبى؟

وهل أمكنه أن يصادق الكفيل ويدخله بيته ليسمح له بالدخول والخروج عبر البلاد كمواطن من الدرجة الأولى؟

هل دبغته الشمس الحامية وغيرت لون جلده. وهل سفت الرمال وغمرت أيامه بالجفاف واللامعنى؟

تآكلت أيامه فى الغربة وحين أراه فى إجازة الصيف وهو يقود سيارته الفارهة أشير له بيدى فلا يعرفنى.

يجب عليك أن تبدل ثيابك الآن لأنها صارت غير لائقة، فهى تكشف

عن عوراتك. عليك بالثوب الأبيض الشاهق والدشداشة والمسبحة.

أما ملامح وجهك فقد أعلنت عن هويتك الزائفة بتلك التقطيبة الصارمة واللحية التي طالت والشارب الذى حُف بيد حلاق من باكستان أو بنجلاديش!

تنهدت خالتى هداية، وقالت لمحرومة: إن شعبانَ قد تدهورت صحته، وأن دراجته التي يقضى بها حوائجه قد سببت له مرض البواسير.

كدت أطلق ضحكة ساخرة. تبادر إلى ذهنى على الفور - ولا أدرى لذلك سبباً - منظر لا أنساه حين زرت مزرعة قرية «الخيَّاطة» للبط البكيني. كان المسئولون بالمزرعة يبيعون البط البيّاض الذى انتهى من وضع جميع بيضه، فكنت ترى بوضوح خلف الريش القصير فتحة وضع البيض وقد بانت محمرة وعارية بشكل يثير القرف والاشمئزاز.

قالت ثريا بصوتها المثير للضيق: أمى. ما بال عبدالعزيز ينظر إلينا هكذا؟

كأن ماء بارداً انسكب على رأسى. قالت محرومة: هو حر. أنحاسبه على نظراته؟

لم أعلق. توقفت أمام شكرى الذى بدا غارقًا فى الحزن والإرهاق. أشرت له أن يتبعنى، وأتت منيرة بفتحى. دخلنا حجرتها.

ألا يجمعنا سوى الموت يا إخوتى. ها هو فودة الخزرجي قد ذهب بعد أن نال منا جميعاً. وحين صارت بمفردها كان شيء قد انتهك ولم يصلح ما كُسر تلك النظرات الوادعة التى صارت تغمرنا بها. غير جائز على الميت سوى الرحمة. أين أنت يا خالد؟ هل تخرج عن صمتك إذا ما وصلك الخبر؟

قالت منيرة بصوت أرادت أن تجعله مألوفاً وطبيعيًّا فخرج مهتزًا وضعيفًا: المرحومة عندها ذهب. ولن أفعل شيئاً إلا بمشورتكم. ستأتى المغسلة.

هل ترون أن نخلعه بعيداً عن أعينهم الحاسدة؟

هزوا رءوسهم جميعاً، دون كلمة تقريباً.

كنت أعرف ذلك، وكأنني أفتح كتاباً قديماً وأقرأ سطوره التي أعرفها. أزاح شكرى الملاءة، وخلص الأساور من الساعد، واليد المضمومة بصعوبة.

سألت منيرة: أنترك الخاتم؟

قال فتحي: لمن هو؟

كان هذا السؤال يحيرني. قال شكرى الذى يسجل فى عقله كل شيء ولا تفوته فائتة: إنه لأبى.

قلت وكأننى أثأر لنفسى: لو كان لفودة لدفنّاه معها.

بصعوبة بالغة أمكن له أن يخلص إصبعها الذى ازرق وامتلأ بالتقرحات.

قالت منيرة: والعقد الذى حول عنقها؟ عليها رحمة الله.

أراد فتحي أن يخفف من وقع الصدمة: أقرءوا الفاتحة على روحها.

تمتمت الشفاه فيما كانت يد شكرى تبحث عن المحبس وتفكه وحين انتهى من كل شيء أتت منيرة بمنديل أبيض وضعت فيه الأساور والخاتم والعقد. ثم صرّته وخبأته فى صدرها.

قال فتحي وهو ينسحب من الحجرة: سنجلس بعد الجنازة سويًا. وكل منا سيأخذ نصيبه!

حاول شكرى أن يبتسم: لابد أن نلم شمل العائلة.

غمزت لى منيرة فى خفاء: طبعًا. طبعًا.

بعد أن خرجا أمسكت يدى، همست فى أذنى بضيق: تصور أنهما لا يفكران فى زيارتى بالمنزل، وكأننى مقطوعة من شجرة. فى الأعياد لا يتذكرنى أحد إلاك.

قلت لها قبل أن تذهب من الحجرة: انتظرى. أريدك فى كلمتين.

قالت باضطراب : خير !

أشحت لها بيدى : لن أحضر تقسيم التركة . نصيبى تصرفى فيه كماتشائين .

رمقتنى بقلق ، ومدت يدها تسوى شعرى المهوش . تنهدت وهى تضم يدى إلى صدرها ، كما كنت أفعل معها وهى طفلة صغيرة : أنت أنت لم تتغير يا عبدالعزيز .

أحجمتُ عن الخروج . ماذا يمكننى قوله فى مواجهتهم . ونظراتى محسوبة ؟

ألم تتشكك ثريا فى كونى أخصها بنظرة تحمل سخرية ما أو إهانة ؟

كانت محرومة تحب أن تقرأ فنجان القهوة لأمى ، وتبشرها بتحقق أمنيات مستحيلة وأحلام بعيدة . حين قاطعتها عاماً كاملاً عادت بهدية من الحجاز تليق بالصلح . أعادت أمى لها البطانية القطيفة الفاخرة التى تحمل منظر أسود كاسرة . قالت لها العائدة من الحج : كل ذلك من خير الحاج وصفى .

هل آوى إلى فراشى لألتمس لحظة راحة وونس مع نفسى القلقة المعذبة بأنين هائل ؟

قالت أميرة إنها لا تدرى كيف حدث ذلك . إنها لا تطالبنى بأن أغفر خطأها . لكنه استدرجها إلى عتمته وفك أزرار بلوزتها وتسلل إلى خلاياها كذئب . لكنه كاذب وغير مهذب وهى لم تحبه يوما . هى لم تحب غيرى !

قلت لها وهى تقف فى مقدمة صف طويل يمتد حتى حافة الأفق وهل كفرت بحبى لك لأننى كنت معك صادقًا ومهذبًا ؟

حين بكت ، كان مازال معطياً ظهره إياى . وهو يضغط بقسوة على صدرها الناهد ويحرك الحلمة بأطراف أصابعه وهى مغمضة عينيها فى نشوة عارمة ، وصوتها مختنق فى بكاء مشتعل كى يكف عن أفعاله الصعبة ؟ !

كانت النسوة جاحظات العيون. يبكين في حسرة حبهن الذى صرعته خطيئاتهن القدرية.

ثم إن الصبية أحضروا الحصى بلون أخضر في كومات ثلاث بأحجام متفاوتة. وكان على أن أرجمهن.

قالت انتصاف: لن يكون في استطاعتك أن تنال منى.

سوسن بكت: أمك التى فضحتنى!

أدارت عواطف وجهها نحو الشمس وكأنها كشافات إضاءة مسرح الجامعة: لقد غرّر بى الوهج الملون!

قالت هاشمة ورائحة البنج تنفذ إلى أنفى: الحب لا ينضج إلا بعد الأربعين!

صمتت هنيهة: لا أخافك!

رددت نشوى أبياتاً من شعرها الرومانسى الشاحب، وكانت تسعل بشدة وكأن صدرها قد سكنه السل: ستجد حروفاً من اسمك على قاعدة النصب التذكارى!

أما منى فقد قبلتنى هاربة فيما كانت أميرة تدارى صدرها العارى وهى تطلب منى فى لهجة متوسلة أن أغفر لها.

عادت منى ورأيتها تحمل النعش الملكى المقدس بنقوشه الغائرة وإشاراته السرية، وتجوب الممالك بحثاً عن أشلاء أوزيريس التى قطعها ست وبثها فى المقاطعات: كن رحيماً.

قلت: يا إيزيس المخلصة. هل عثرت على قلبه الممتلئ بحب البشر؟

قالت: ليس بعد.

ثم إنها راحت تسعى فى السهول والأودية وتجوب الشطوط، وعلى جسدها رداء من كتان مصرى له نقوش فرعونية بديعة.

قلت لها وأنا أملى البصر فى ملامحها المشرقة: سأحاول أن أكون رحيماً يا إيزيس! ●

الفصل العاشر

طلاء يتفتت

رائحة ماتنبعث من الحجرة. رائحة حادة، مراوغة، شديدة القسوة. أحضر عبدالسلام كيس النوشادر، ودسه تحت الوسادة. قادته منيرة برفق وعادت به وكأنها تحرسه من الموت. كان الفجر قد أوشك على الاكتمال. والنور له غبش خفيف.

داير الحمام فى الجهة المقابلة قد استعد لإطلاق أسرابه. حين وقفت فى الشرفة لمحت مصطفى أكبر أطفال يحيى مختار يصعد السلم الخشبى ويصفر بفمه صفيراً لحوحاً متقطعاً.

يطير الحمام فى أسراب وحين يمر فوق منزلنا أشعر برفيف أجنحته وكأنها تلمس وجهى. دوران مفاجئ يطوى فيه أجنحته ثم يفردها ويتجه إلى زاوية أخرى بلون ريشه الأبيض الناصع. ونتف من سحب تعبر فى رفق يهدهدها هواء بارد طازج. يغسل ريش أجنحته فى الضوء وهو يتجه صوب الشمس التى مازالت متعثرة.

كان خالى الأسطى إسماعيل يقول لى إنه يسبّح كل طلعة شمس: الملك لك لك لك.. وفى ساعة الغروب: لا شريك لك لك لك.

- وهل للحمام لغة يا خالى؟

يرمقنى فى تأنيب: كل طائر أو حيوان له لغته التى لا نفهمها!

لو كنت سليمان لفهمت لغة الحمام كما فهم لغة النمل حين راح يحذر بعضه البعض خوفاً من أن تطأه حوافر الجياد.

أشعر أننى فى ورطة. سمعت صوتاً كالنواح الخافت. هل انقضى

زمن الانتظار ويتجهون الآن لمواجهته ببكائهم. هذا شيء يرهقني. يرهقنا جميعاً. يجب أن يتدخل فتحى أو شكرى. فالبكاء على الميت حرام. الملك لك لك لك لك.

دون أن أحدثها اندفعت منيرة إلى حجرة الحريم. صرخت فيهم: لستم أكثر حزناً منى.

لا داعى للبكاء وهى معنا. افعلوا ما شئتم عندما تخرج.

وكأنها تقرأ أفكارى. صمتن بينما استمر نشيج خالتى هداية التى ارتمت على كنبة مخلوعة المسند. قالت لثريا: هم لا يريدوننا. لن ندخل البيت بعد اليوم.

ربما بدت منيرة فظة أكثر من اللازم، لكنها معذورة. انحنيت لأمسك بقطعة من طلاء الجبس الذى سقط من السقف على بلاط الصالة. تفتت فى يدى. وحين كنت أحدق فيه دق الباب: لعلها المُغسّلة!

فتحت نوال وتراجعت خطوتين. كان غريب زوج خالتى نوال. سلموا عليه بحرارة. قال شكرى: تفضل.

أسرعت زوجته وأتت بمقعد وضعته إلى جوارى. ردت لها الروح حين رأته يجاملها ويأتى. هل مازال يضربها كما كان يفعل حين تشتد به الضائقة المالية؟ نظرت إلى ملامح وجهه كانت قاسية، وفى عينيه جفاء عدوانى غريب.

إضاءة النيون تسقط فى الصالة، وكأنها تحدد جسده الذى ارتمى منهكاً على المقعد. كان يتنفس بصورة مثيرة للشفقة وكأنه جاء على مضض ليؤدى واجباً ثقيلاً.

همس فى أذن عبدالسلام: أين الحمّام؟

أشار بيده إليه، وصحبه فتحى إلى الباب الخشبى المبتل الموارب. دفعه بقدمه. وقف أمام الحوض يغسل وجهه بالماء والصابون. وحين انتهى كانت يد نوال تمتد بالفوطة.

هل كان يختبرها ويريد أن يؤكد لنا جميعاً أنه السيد هنا أيضاً.

إنه التحدى الذى لم يعد له معنى فى ظل الموت الجاثم. لم أكن أحبه، لذا تركته وعدت إلى الشرفة أراقب الدوران الهادئ المتموج الرقيق للحمام.

أيذكر يحيى مختار إصابته القديمة فى قدمه، ونذالة شعبان التومرجى الذى أكل مال النبى دون أن يطرف له رمش؟

بحاستى السادسة أدركت أنها تريدنى فى شىء. التقت عيناى بعينيها فى ومضة مفاجئة. قلت لها: هل تريدين شيئاً يا منيرة؟

هزت رأسها بالإيجاب قالت ببساطة أزاحت فظاظة هذا القادم: هل أعد لهم إفطاراً؟

قلت محاولاً تحسس كلماتى: هذا واجب. فهم جائعون متعبون.

هى قبيلة من الهنود الحمر البدائيين يجب أن تنقرض. يجب أن ينزعوا الريش عن شعرهم المهوش، وأن يتراجعوا فى أركان التاريخ المهملة وزواياه المظلمة. لا حاضر لهم ولا مستقبل. الماضى يتتابع وفى كل تفصيلة. أكتشف كم هم حاقدون مدنسون بالخزى والهوان. أنا منهم. مدان مثلهم، بل أعترف الآن أننى أكثرهم تخلفاً، وأن الحبال المجدولة التى حاولنا أن نربط بها أنفسنا بالحاضر قد انقطعت وتهاوت. لقد سقطنا فى هوة سحيقة، نتخبط وكلما حاولنا الفرار من مصيرنا المظلم ازددنا رعباً. حراس أشداء يسوطون ظهورنا ونحن نتلوى فى صمت، الأنين مكتوم.

حطت يده على كتفى : كيف حالك يا عبدالعزيز؟

قلت بانزعاج ظاهر من وقع المباغتة: أنا.. حالى.. طيب..

تلك الأيام الغبية التى جمعت خالتى نوال ذات الوجه السمح الهادئ بهذا الرجل الذى أوسعها لطماً وركلاً، ويسأل عن حالى.

قالت أمى لها: لا تذهبى. هذا رجل لا يقدرك.

بكت نوال: يا أختى. هل أظل أرفض كل زيجة لأصبح عانساً؟ ظل

رجل ولا ظل حائط.

كان الحائط يجلس إلى جوارى بلا ظل تقريباً، وكنت أعرف أنها كانت تحبه، وكانت على استعداد لتبيع العالم كله، بما فيه قبيلتنا - قبل أن تنقرض - كى تعيش معه فى السويس.

أحبت فيه خشونته، ووجهه الصارم الملامح، وتقطيبته. وهو لم يعدها بشيء سوى أن يمنحها بيتاً وأطفالاً.

تبدو الآن راضية كل الرضا عن مجيئه. تنظر نحوى وكأنها تعتذر لى عن تلك الأيام التى كانت تحكى لى عن هزائمه المنزلية. حماتها تعيرها بأن عائلتها منحطة، وأصلها واطئ. تحتمل قسوة الحياة، وهى تدرك أن دوام الحال من المحال.

ماتت حماتها ولبست الأسود أعواماً، وحين خلعته لم تتفوه أمامى بأى لفظ جارح تجاهها. كانت أصيلة وجميلة جمالاً ذابلاً. لم يكن يمكنها أن تتنبأ بأنه سيلطمها ويغلق الباب فى وجهها بعد أن يرمى ملابسها الداخلية على السلم.

كل ما كان يمكنها فعله أن تقبع كقطة أليفة منزلية فوق درجات الدرج الخشبى ترتق الصمت بحديثها مع النفس، وصوتها الرخيم يغنى رغم بؤسها:

«طير يا حمام.. وانقر شباك حبيبى

ارمى السلام.. ده هو أهلى، ونصيبى»

سألته الحاجة سكينة زوجة خالى الأسطى إسماعيل: كيف حال أولادك؟

هز رأسه وكان يخرج كلماته بصعوبة: بخير.

أشبه بتمثال حجرى أخرجوه للتو من تحت ركام الرمال بعد أن طمرته الذرات الدقيقة لآلاف الأعوام. جالس معنا وروحه متيبسة أو هكذا خيل إلىّ.

هل لأن خالتى نوال حكت لى كل شيء؟

قلت للأسطى إسماعيل لماذا الحياة لا تحتمل؟ ومن أين تتفجر كل هذه الأحزان؟

أخذنى من يدى إلى ضريح شيحة القديم. على الجدران المتآكلة رأيت السيوف والمقلاع، وحراب صدئة: كل شىء إلى زوال.

تخطينا الحفر التى تحوى ماء المطر الراكد بلونه الأخضر، ورائحته العطنة:

هذه أسلحته. أين جسده؟

أشار بيده: تحت هذه القبة يرقد هادئاً قانعاً بوحدته. كنت قد قرأت أن جمال الدين شيحة قد حارب الصليبيين بعد أن فر الأمراء وتركوا دمياط بلا جيش يدافع عنها. وأن النسوة خفن من اعتداء الغزاة عليهن، فكن يضعن العسل على وجوههن ليقف الذباب فيعافهم الجنود الظامئون للنسوة.

انسحب الأمراء وبقى جمال الدين شيحة ومعه أولاد البلد والشطار والعيارون يدافعون بأسلحتهم البسيطة وحيلهم المدهشة عن أهل المدينة العزل. كانت الأسوار محطمة والمدينة ترزح تحت سماء يجللها العار

استند إلى كتفى، وشعرت بشىء مقلق وعبثى ينتزعنى من صحبته. لم يكن باستطاعتى أن أظل أسأله وهو يجيب ليخفف عن نفسى الشعور بالمرارة والفقد

سألته بلا مواربة: لماذا يهرب الأمراء دائما بالجياد المطهمة بالياقوت والزمرد، وصناديق المجوهرات تاركين الرعاع تحت رحمة الغزاة الفاتحين؟

هز رأسه فى يقين لأنهم أمراء عندهم مايخافون على ضياعه؛ المال والنساء والذهب

قلت: لماذا لا يهرب الفقراء؟

قال بحكمته التى طالما طيبت نفسى: لأنهم لا يملكون سوى الأرض التى عليها بيوتهم. وهى كل شىء لهم. يبقون ليحموها من النهب والخطف

شحت الأقوات حتى بيعت بيضة الدجاجة بدينارين، وتكالب الناس على جوال دقيق تحمله بغلة حتى لم يبقوا حفنة تملأ قبضة اليد. وحين انتهوا من ذلك نهشوا جسد البغلة والتهموها. فيا خفى الألطاف، نجنا مما نخاف!

قابلنا رجل بدين كان يتفحص وجوه المارة. يفرد ساقيه أمام مخزن موبيلياته الضخم ببلادة وعدم اكتراث. لا تزعجه أسئلة من أى نوع. نظرت فى عينيه بثبات. تأكدت أن العينين خابيتان. لا بريق فيهما مطلقاً. لا بريق.

صاح بنا ونحن نمر فى مواجهته: تفضل يا عبدالعزيز.

اقتربت منه أكثر، ابتسم: ألا تعرفنى؟

أمسكت بيد خالى، باعدت رأسى للوراء أتأمله فى ضوء الشمس المنسحبة ساعة المغيب: أنت إدريس. أليس كذلك؟

زام فى مرح: نعم، إدريس. زميل المدرسة الابتدائية.

تزايدت دهشتى: تعرفت عليك بصعوبة. لقد تغيرت!

كإمبراطور متقاعد صاح: يا ولد. أحضر مقعدين.

كان الصبية يحملون قطع الأثاث فوق أكتافهم وظهورهم فى انحناء مؤثر، يسيرون فى بطء كنمل صغير، والقطع جاثمة على أنفاسهم: ماذا تشربان؟

إدريس الذى لا يعرف فك الخط صار معلماً كبيراً. هل يا ترى صفعات المدرسين مازالت تحمل آثارا فوق وجهه؟

ذكرنى على الفور بشكرى. سألته: هذا معرضك؟

تألقت ضحكته: لا، معرضى بجوار جامع البحر. هذا مخزنى. وهؤلاء صبيانى. وكما ترى فإننا نتعب من أجل اللقمة. إنها لا تأتى بالساهل.

عرفته بخالى، فشد على يده بترحاب مبالغ فيه. قال بامتنان حقيقى، وهو يخرج علبة سجائره: تفضلا. سجائر مارلبورو.

اعتذرنا. أخبرنى أنه تزوج وحج البيت ثلاث مرات، وأنجب طفلتين ماتت الصغرى بالتيفود، وأن عمارته القديمة التى اشتراها فى أرض

الجمل قد كشف سقفها وهو يعيد الآن صبه. أما عمارته الجديدة التى تواجهنا الآن فهى فى سبيلها إلى التشطيب. سألنى بلا مواربة: ألك أصدقاء فى الضرائب؟

قلت باستياء واضح: لماذا؟

رمش بجفنيه: إنهم يفرضون ضرائب جزافية، وحالتنا صعبة.

كانت حالته صعبة فعلاً. وحين انتهينا من شرب الشاى ألح فى معاودة الزيارة. فأيام زمان كانت حلوة. لم أذكّره بالصفعات التى كانت تنهال على وجهه لبلادته. قلت له: سأحاول!

هذا الإدريس عكر صفوى. قلت لخالى الأسطى إسماعيل: هذا الثرى الذى فسد فى التعليم يشكو حاله. ماذا أفعل أنا إذن؟ ألقى بنفسى فى البحر؟

ضحك بعد طول تجهم، وحين اقتربنا من الطريق الأسفلتى ربت على كتفى: أنت أفضل منه. لأنك تفهم!

قلت وكأننى أريد أن أنزع فمى من تجويف الجمجمة: عقلى هذا يحيرنى!

جاءت المغسِّلة أخيراً. أمرتنا بصوت غليظ خشن أن ننزل - نحن الرجال - إلى حوش المنزل. كانت تحمل فى يدها كيساً من البلاستيك به كل حوائجها.

قبل أن ننزل السلم طلبت منا أن نحضر لها «الخشبة» فى سرعة. حملها شكرى من جهة، بينما تعاون معه فتحى بحملها من الجهة الأخرى. عادا مسرعين. أُغلق الباب. سمعنا صوته، ونحن فى طريقنا إلى الحوش.

وجدنا أمام المنزل الكراسى متراصة. جلسنا. ومضت فى ذهنى فكرة غريبة. لم تطرأ على بالى من قبل. حاولت أن أعثر على تعبير مناسب يتفق مع تلك الفكرة. ماذا لو أن الإنسان يطَّلع على حسابه قبل الممات. ماذا تظننا فاعلين؟

هل يمكن هتك ذلك الغرور الفارغ الأصم حين يتأكد للإنسان أنه

مذنب وأن حياته كانت خالية من كل قيمة؟

أيمكن أن نخترق ذلك الصلف حين يدرك المرء فى نهاية عمره أن أمره قد افتضح. والأكتاف التى تحمل النعش هل يمكنها أن تحمل مخطئاً بنفس الرضا؟

طردت تلك الأفكار من ذهنى. طردتها وأنا أردد بينى وبين نفسى: كل شيء قبض الريح!

كان الحاج وصفى يرتدى البالطو الصوف الذى لا يفارق جسده، وإلى جواره المعلم مراد ممسكاً مسبحته. يتحدثان حديثاً خافتاً.

يخيل إلىّ أن أسراب الحمام التى كانت تحلق مع غبش النور الهادئ الواهن قد كفت عن الدوران. سمرت عينىّ على الرقعة الزرقاء المنفسحة بين العمارتين. بانت عصافير قليلة تعبر فى سرعة خاطفة بينما لا حمام يحلق ولا واحدة ضلت طريقها!

شعرت بيد توضع على كتفى. كانت يد المهندس باسم ابن الحاج وصفى. قدم لى العزاء فى وفاة أمى. سألته: أعدت من ألمانيا؟

هز رأسه لينفى ذلك: أنا فى إجازة. لا أنوى العودة مطلقاً. تزوجت عن قصة حب عارمة، أنجبت وانفصلت!

يبدو أنه يكرر قصتى وشعيرات بيضاء نبتت فى ذقنه بينما خصلات شعره فاحمة كما أعرفها

سألته: وهل تدفع نفقة؟

ضحك: أمه تعمل. ولم ترفع قضية بعد. قد تعود إلىّ وإن لم تعد فلدى البديل!

قبل أن أستزيده فى التفصيلات أخرج صورتها همس فى تكتم أقرب إلى الزهو: تعمل كفتاة غلاف فى مجلة للمراهقين وعجائز الشرقيين. وقد أعجبت بهذا الشاب القادم من بلاد الفراعنة والتماسيح، والأهرامات وتوت عنخ آمون.

حاولت أن يبدو صوتى خافتاً: تكرر قصة معاز صديقى مع سليا. لكنهما متحابان وهى تتبعه كظله. أمكنه أن يفرض عليها سطوته، وهى تقلده كببغاء ذكى أما أنت فيبدو أنك لم تفطن إلى الطريقة المثلى لمسح عقلها!

سحبته من يده، وجلسنا فى طرف قصى: هل يعرف الحاج وصفى التفصيلات؟

نظر إلى فى تعجب، وكأننى أعيده إلى عصور سحيقة قد انقضت. عهود غارقة فى اللا معنى، متحللة، متفسخة، وغبية.

قال لى: حياتى لا تعنى سواى. وسوف أتزوج من أخرى بعد أن أوقع عقداً برفع أجرى فى مصنع سيارات بشتوتجارت.

كان قلبه معلقاً بالغابة السوداء، ونهر الدانوب وفتيات شقراوات بشرتهن تشف عن عروق زرقاء. ضحكت: إذن فقد أدمنت الزواج من الأجنبيات يا ابن الحاجة محرومة.

قدم لى سيجارة. هززت رأسى شاكراً ممتنًا. سألته: أترى ابنك؟

لم يشعر بأى قلق: أحياناً. إذا توفر لى وقت. كثيراً ما ترسل لى لأحضر عيد ميلاده وهى تكرر الاحتفال بالمناسبة عدة مرات فى العام؟!

مد يده بولاعة ذهبية: خذ هذه هديتك!

قلت: لا أدخن إلا قليلاً. سجائر بحارى.

صمم فأخذتها. واكتشفت أن الحجرة الرطبة المظلمة التى قاد فيها شكرى أميرة ذات صباح فى رأس البر كان لابد أن أحطمها. إذ رأيته جالساً فى مواجهتى ينظر نحوى كغريم قديم.

وحين كانت تمر حسيبة فى ثوبها الأسود صاعدة إلى أعلى كانت تسبقها بخطوتين

نظرت نحوى دون غيرى. هزت رأسها وأشارت بأصابعها أن آتى.

قلت لباسم: أسلم على إخوتك. وجدتها تنتظرنى فى حوش المنزل.

لم أكتشف أن هذا الأمر فيه ما يريب إلا بعد أن لاحظت الأعين الخرساء تحدق فيَّ.

مدت يدها نحوى وبشفقة امتزجت بحب معتق همست : كيف حالك يا عبدالعزيز ؟.

لماذا لم تعد تزورنا ؟

اجتزت بوابة التردد . طلع صوتى مهتزاً : بخير !

سألتنى : ما رأيك فى أن أحضَر للدبلوم؟

أثقل على التعب : لا بأس.

قالت لها حسيبة وهى ترمقنى بعداء غريب : إلحقى بى. سأصعد أنا.

أدركت أن لا شيء يقال. سألتنى ثانية : هل أنت فى حاجة إلى مساعدة ؟

خافت أن أغضب : أقصد أنت فى حاجة لمن يقف معك.

كانت الجدران مملحة ومتساقطة الطلاء، والأسمنت القديم به شقوق، وعناكب تنسج خيوطها فى الزوايا المهملة. وكانت تضع حول عنقها سلكًا ذهبيًّا يحمل الحرف الأول من اسمها، وهو نفس الحرف من اسمى بالإنجليزية. وحدوة لدرء الحسد.

صمتٌ مشحون بمعان عديدة. نظرت فى حدقة العينين بدوت صغيراً ومحبوساً فى استدارة لامعة.

كانت ساعتها مفضضة. ضحكتْ: أحضرها باسم من ألمانيا. عاد منذ أسبوع.

قلت لها : هو يجلس معى بالخارج. وقد أهدانى ولاعة.

قالت محاولة أن تستعيد أيام الشقاوة : قُل قداحة !

زهور لها رائحة منعشة، ورذاذ الماء المالح، وأقدام حافية على الرمال.

أنت التى ابتعدت. وذبحت هذا العنق الذى تتأملين شحوبه.

أصابعى كان يمكنها أن تفعل نفس الشيء، وكان يمكننى أن أحطم

أنف فودة الخزرجي، وأن أقوض جدران الزنزانة ١٤ . وفي حقيبتي سكين كنت أستطيع أن أذبح بها انتصاف وصالح الصغير، ونفسي.

لكن تلك السيور الجلدية التي لها متانة الفولاذ تشدنا إلى مصيرنا القدرى دون إرادة منا. هل استراح شكرى الآن عندما تأمل ثدييها وأمكنه أن يلمس نعومتهما ويلهث كالكلب؟

أكان بإمكاني أن أقبل اعتذارك وأن أغفر لك هذا السقوط الموجع للقلب؟

حمل إليك زهوراً معدنية فظة فقبلتيها على الفور. هو الآن يملك معارض بواجهات زجاجية، وعنده سيارات نقل تذهب بالأثاث إلى القاهرة والإسكندرية. ويحج البيت كإدريس كلما تيسير له ذلك خارج القرعة. حجه من النوع السياحي الفاخر حيث الطائرة الجامبو الضخمة، وفنادق مكيفة الهواء، ومطوف يعرف كيف يوفر للحجاج الراحة والهواء والجمرات.

قالت: أريد أن أتحدث معك فيما بعد.

هززت رأسي موافقاً: سأحاول هذا.

كلهم يريدون أن يتحدثوا. وكأن الموت هو الذى ذكرهم أن للإنسان لساناً يمكنه أن يعبر به عن مشاعره، وأفكاره.

سيكون ردى على كل مشاريعهم واحداً: لا. لا يمكنني ذلك.

كان عبدالحى يجلس معنا فى الصالون يضع ساقاً فوق ساق. يحدثنى عن حياته التى بدأت من الصفر. وعن تجاربه التى اعتمد فيها على فهم السوق. كان يردد بانتشاء: السوق ليس لعبة. إنه يكسر أعظم الرجال لو غفلت أعينهم لحظة واحدة.

لذلك كنت أراه مفتوح العينين دائماً. لم أضبطه مرة واحدة نائماً أو فى غفوة.

سألت انتصاف وهى تلملم ثيابها: أينام أبوك مفتوح الجفنين كسمكة الرنجة؟

تغير لون وجهها. ضحكتُ من كل قلبى: أو الدنيس المفضض!

تعلق صالح فى رقبتى، وطلب لوح الشيكولاتة. وضعت يدى فى جيب بيجامتى:

خذ يا صالح. انتظرى حتى يطلع الصباح.

أتيت بعلبة المبيد الحشرى ورششت الحجرة. طاردت ذبابة أرادت الإفلات من مصيرها.

أمكننى أن أراها مضرجة فى سائل كثيف من مبيد الد. د. ت ذى الرائحة النفاذة.

الموت مصيرها. الموت.

على مقبض الباب كانت تضع باروكة لها لون الحناء. خرجت وأغلقت الباب.

عبر الزجاج أمكننى أن أرى ظل جسدها العارى وهى تبدل ثيابها. هذا الجسد حفظت تضاريسه، وأصابنى بالملل. فى ظهرها حسنة وتحت الإبط وحمة لأن أمها لم تأكل الكمثرى. عبدالحى الذى يتفاخر بالثراء أحجم عن شرائه حتى يوفر أكثر وأكثر. ابنتك يا حماى العزيز بوحمة وأثداء متضخمة.

أتذكر يوم شعرت بالجنين يتحرك فى أحشائها. طلبت لحماً مشوياً وطحينة بيضاء

صرخت فيها: أتلدين لى ولى عهد إمبراطورية الصين؟ أمى كانت نفسها تهفو لبقايا الطمى الذى يظل عالقاً بجذور ثمرة الثوم!

تتحرك بالداخل وتضع الأصباغ على وجهها. التراب الذى يعلو قلبى هل أنفضه الآن يا انتصاف؟

ماذا تريد منى أميرة؟

وهل كانت هاشمة على حق حين أخبرتنى أن الحب لا يبدأ إلا بعد الأربعين؟

ما معنى أن تختارنى رغم أننى أخبرتها بحقيقة أمرى؟ فأنا وصولى وانتهازى، أبله وضعيف. هل ظنتنى فارساً سقط من العصور الوسطى يمتلك فضيلة التواضع وإنكار شهامته؟

سأشترى سنوات المعاش العشرين، وأدفع كل ما معى من مال حتى أظفر بحريتى.

سأترك الوظيفة. الفصل المكدس بالتلاميذ، والعيون الخرساء المحلقة، وتقارير المفتشين السرية والعلنية، وأسئلتهم المليئة بالأخطاء. وطابور الصباح الذى يمتلئ بالصراخ والحكم والمواعظ الميتة، وتوجيهات المديرية التعليمية بالانضباط، والتشديد على التوقيع يومياً بالحضور والانصراف.

سيمكننى أن أظفر بحريتى. أن ألعن الآلة الفولاذية الصماء التى تطحن عقولنا وتنثر فى خلايانا الرماد.

وقتها قد يمكننى أن أنفض التراب عن قلبى. وسأخلع نعلى وأحضرهن أمامى مذنبات: سوسن، منى، أميرة، عواطف، نشوى، انتصاف، هاشمة.

أطلب منهن طلباً محدداً: أن يقتطعن الرخام ويصنعن مقبرتى، وحين أدفن فى التراب فيمكن لكل واحدة أن تضع زهرة وتنصرف إلى حال سبيلها، ويكون فى طاقتى أن أغفر لهن ذنوبهن تجاهى.

قال باسم عندما عدت لأجلس بجواره والكراسى قد شغلت بالجيران والأقارب: ألا تفكر فى الهجرة؟

شمعة واحدة يمكن لأميرة أن تضعها فوق رأسى، وتنصرف لأنها حتى لو قبلتنى قبلة «مُنى» الخاطفة فلن يندمل جرح القلب.

اكتشفت الآن أننى أحبها فعلاً، وأن انتصاف كانت أكذوبة كبرى، وأن صالحاً ثمرة خطيئة المجتمع، والفراش الدافئ المدنس بوثيقة عقد القران، وبمباركة من معارض الموبليات المنبثة فى كل أنحاء المدينة! ●

الفصل الحادى عشر

قطعة الرخام

تكاثر المشيعون. جلسوا فى صمت على المقاعد المتراصة ونظراتهم مرشوقة فى التراب. لقد أحسن عبدالسلام صنعاً عندما فكر فى أن ينتهى كل شىء فى الصباح، لا داعى مطلقاً لأن تتأخر الجنازة.

اعترى وجه شكرى لون رمادى شاحب بينما امتدت يد فتحى ترتب من وضع ياقة قميصه، ويده ترتجف دونما سبب.

تفرست الوجوه المصفرة، وأدركت أن القبيلة تجمع صفوفها استعداداً لمقابلة ذلك المتغطرس الفظ: الموت.

كانت نتيجة المعركة قد حسمت نهائياً لصالحه فيما بدا أن طقوس الصدام لابد أن تجرى فى ونس وهدوء.

قام عبدالسلام كرجل يعرف الأصول بتقديم سجائره للجالسين كى يتغلبوا على ملل الانتظار.

صوبت نظرتى الباردة تجاهه. كان يعرف أننى سأرفض فاختصر الطريق.

تحت إبط الحاج وصفى دائرة من العرق. لحظة الخروج تلك تشبه ولادة بطيئة تعذب الطرفين. يستوطن القلق صدور المشيعين. ليست لدى الشجاعة لأن أقف وأصارحهم بحقيقة الخواء الذى يملأ عقولهم. أخرج ما فى نفوسهم من بهتان. يحاولون إخفائه بهزات رءوسهم المتعبة. وشذرات أحاديثهم المقتضبة التى تتناثر الآن انتظاراً للمواجهة الموجعة الدامية. تنساب دمائى فى صمت وجرحى مفتوح. علىّ أن أرقب القط الأرقط ولا أسمح له أن يتتبعنى. أما ذلك النسر الجارح الذى يبغى

نهش قلبي فسوف أتحاشاه. سألتصق بالجدران وأبكي في صدر منيرة.

هي التي يمكنها أن تحميني. هي أمي التي لم تلدني، وشقيقتي التي كانت تقف خلف ضلفتي الشيش لتترقب عودتي. تفتح لي الباب بهدوء. تمد لي يدها بحبات البندق وعين الجمل.

تفتح بيدها الناعمة الدقيقة الراديو، وتحرك المؤشر حتى يتواتر صوت الشيخ رفعت الورع الصافي يغسل حيرتنا ويشملنا بهدوء غريب ونور صافٍ فنبكي.

أخفي في صندوقي الخشبي حبات «أبي فروة» نضعها على النار فتطقطق بصوت لطيف يذكرنا بالشتاء.

لم تبدر مني أية حركة وعضو مجلس الشعب يأتي وفي معيته رجال يحترفون المجاملة، يرسفون في حزن كاذب مصنوع. من منهم يعرف أمي ويهمه أن تبقى أو ترحل؟

من يميز خيط النور اللامع وسط نسيج العتمة، ويمكنه أن يجذبه حول إصبعه مثلي؟

في الشرفة تقف حسيبة بثوبها الأسود، وسنوات عمرها المثقلة بالإحباطات، ويبدو أنها تبكي إذ إن صدرها يهتز، وأميرة تحاول أن تهدئ نفسها.

ذلك الاقتحام المريع سيحدث حالاً، وسيرفع الجميع رايته البيضاء، وسيسيرون في الركب فلم البكاء؟

آخر ما كنت أتصوره أن تحضر. جاء بها والدها وربت على ظهرها وجعلها تصعد السلم ثم جاء إلى المجلس. ليقدم كلمات مكرورة لن تقدم أو تؤخر. يعدل من وضع نظارته السوداء ثم يتجه نحوي مباشرة. وجدتني أتخبط في قلة معرفتي بالأمور. قمت لأصافحه.

- «أهلا قاتلي» - قلتها في سري وجلس في مواجهتي. عبدالحي الذي ذبحني وانتصاف هي الأخرى حين صعدت لم تنظر نحوي. لعلها

رأتنى فأشاحت بوجهها وجاءت حتى لا يقال عنها إنها قليلة الأصل.

هى فرصة مناسبة لتنفرد بها منيرة وتحدثها عن العش الذى علينا أن نحضر له قشًا جديداً، ونحصنه بالأعواد حتى لا ينهار ثانية. لعلها تقبلها وتعرف دون تدخل منى كم هى باردة! برودة لا مثيل لها. بالرغم من المساحيق وطلاء الشفتين والمونكير وتلك الأشياء التى تغيب الآن عن أطرافها وبشرتها فهى تبدو أقل زيفاً.

تدب الحياة فى الشارع، وتتراص مقاعد أكثر فيما تقترب اللحظة الفاصلة الرمادية الخابية. لقد تحررت أمى الآن من كل قيد. بشكل خاص علىَّ أن أصمد حتى النهاية، وأمنع ذلك التدهور المفاجئ الذى يهبط نحو المنحدر المظلم حينما تتعالى الصرخات.

وجهها الذى غاب عنى واجهنى الآن بلا صلف أو كبرياء. بكل الصفاء الإنسانى اقترب منى. أغمضت عينى. حركت رأسها: هل أحزنتك يا عبدالعزيز؟

لا أدرى لماذا اندفعت فى أحضانها التى أعرف مقدار برودتها. كنت على استعداد لنسيان الماضى كله. لا أعرف هل من الضرورى أن تصفح عنى أم أصفح عنها؟ دفنت رأسى فى استدارة رقبتها. همست بنبرة خافتة: أمى.. أمى..

مدت يدها. جاست بها فى شعرى المهوش. قالت وأنا أشعر بدفء أنفاسها تلفح وجهى

ما بيننا شىء أقوى من الموت، وأصعب من الحياة.

كنت أشعر أننى أطحن بأضراسى زجاجًا مجروشًا فيمتلئ فمى بالدماء. هززت رأسى وأشواك الصبار تؤلمنى. الحدقة بها قروح. وهى تضمنى أكثر: لم يفهم أحدنا الآخر!

كم كنت قاسياً معى! واجهتها: قسوتك هى التى سبقت كل شىء!

أحسست بدموعى تنهمر، وحين نزعت الملاءة بدت فى ثوب

قرنفلى بديع. لم تكن هناك أكفان مطلقاً. كان وجهها متورداً كأيام طفولتى، وحبوى تحت أقدام أبى.

صفحت عن كل شيء حتى يدها التى صفعتنى بها أمام سوسن كنت على استعداد حقيقى لأن أقبلها.

قبضت على ذراعى: عد لانتصاف، وضم إليك طفلك.

قلت لها: سأفكر فى الأمر بجدية.

مضى وقت طويل قبل أن أشعر بيده تهزنى: قم لمقابلة المشيعين.

قلت لباسم وقد انفجرت فى عقلى أحزان حسبتها قد خبت: لا أستطيع!

أتأرجح بين حزنى ويأسى. هل يمكننى أن أعيش بدونها؟ كل فشل كنت أنسبه إليها.

كلامها أو صمتها. سخريتها أو تجهمها. هى الآن قد دخلت المنطقة المستحيلة المتفردة.

أين يمكننى أن أعثر عليك يا أسطى إسماعيل؟ لقد أوجعنى غيابك. كنت الملاذ وسط هذا الطوفان من الأنين. هل يمكننى أن أمسك بلحظاتى القاسية تلك وأضمنها مسرحيات جديدة لا أتسرع فى تمزيقها؟

لست موهوباً إنما أفرغ غضبى وانفعالاتى فى كلمات دامية مبتورة أصفع بها صمتى وأخفى بها عريى.

قالت هاشمة: يبدأ بعد الأربعين فهمك للحياة.

تلك الممرضة لم أحبها لكننى أرغبها. أشعر أنها تريد أن تصوب نحوى مسدسها، فتستقر الرصاصة فى منتصف ا لقلب. سيكون جرحاً غير مميت. سيكشف لى أموراً خفية داخل نفسى المعتمة.

يا للفظاعة. ضبطت نفسى متلبساً بالتفكير في الموت. أراوغ الحياة وأحاول أن أخلع أشيائى لأصبح خفيفاً عارياً من كل ما يشغلنى، ويشدنى إلى الأرض. من لى بإنسان يملك القدرة على غسل أدران

قلبى، وغبار السنوات المظلمة التى فضحت ضعفى.

واجهنى معاز باتهام جديد فيما كان يحكم معطفه حول جسده. كانت «سليا» باذخة الجمال أكثر من أى وقت مضى، تلتف فى فستان أرجوانى شفاف به نقط سوداء كتلك التى يمتلئ بها قلبى. تفيض بالبشر والمرح. ضغطت على يدى فى امتنان:

صاحبك يقول عنك.

قاطعها ورفع قبضته فى وجهى: سأحدثك أنا. لن تجرؤ على نفى الاتهام. لقد تخليت عن رفاقك وبعت القضية. ابتلعتك بحار الرمال وغصت فيها حتى رقبتك. انشغلت بهمومك ونسيت قسمك.

كان فى صدرى غل مكبوت. قلت له وأنا أحرك إصبعى فى وجهه: لم أفر مثلك، ولم أغرق فى الضوء والعطور والفراء مثل آخرين. لم أتزوج من أجنبيات لأحل عقدى.

كان لسانى الثقيل يوشك أن تنحل عقدته، وبالرغم من وجهه المتجهم فقد تركنى أنفجر ولم يمنعنى. اضطر فقط أن يتراجع خطوتين ويضم ابنه صاحب الشعر الأشقر إلى صدره، وينصت لاتهاماتى: دعنى أنبش الماضى. تلك القضية قد دُفنت فى الصحراء كنفايات ذرية. نحن فقط الذين لوثتنا إشعاعاتها.

لم تعد تهم أحداً قضيتك، لأنها عادت بالصفعات والسجن والركلات. والذين أقاموا نصبهم التذكارى فى الساحة من جرانيت وردى على هيئة زهرة لوتس لن يقيموا لأمثالك وأمثالى نصباً فى مكان آخر. إن القضية قد ماتت. مثل أمى. ألم تأت الآن مع «سليا» للوقوف بجانبى؟ لماذا تضع على كتفى كل الأحمال؟

ضع عينيك فى عينى. حدثنى أين ذهب عبدالغفار وشوقى القط، وعبدالحق الصريطى.

لقد لحقوا بجثمان عثمان جلالة رغم كونهم أحياء. موت أمى أوضح

كل شيء فلا تحاول أن تخوض ثانية في الأمر .

سمعت صواتاً وامتلأت الشرفة بأجسادهن وهن يبكين ويولولن بوجوههن الحزينة الهضيمة . كان وجه منيرة أشد امتقاعًا ، وأحسست بصوتها المشروخ يخدش روحي . اندفعتْ نحو الحافة في نحيب موجع . جذبوها إلى الداخل . عادت وراحت تلطم خديها فيما كان الرجال يخرجون بالخشبة ، وأقدامهم تطأ السلم في حذر وخشوع . صرخ فتحي وهو يمسح دموعه ووجهه المحتقن : اسكتوا .. اسكتوا .. لا تعذبوا روحها . دعوها تمضي في أمان .

استند شكرى إلى يحيى مختار الذى أمسك به حتى لا ينهار .

وجدت إدريس يحضر الجنازة ، كان يتأمل احتضارى الطويل صامتاً . ولم يجرؤ على أن يحدث أحداً عن الضرائب التى يريد التهرب منها ، أو سقف عمارته المكشوف التى كلفته شريحة من لحم أرنبه الحى .

لعله يسألنى عن لحظة موتى ومواراة جثتى التراب . أشرت له بيدى أن يسأل عبدالحى . إنه الشخص الذى يضع على وجهه نظارة سوداء وقناعًا من تقوى .

إنه مثلك بدأ من الصفر وتجاوزت ثروته النصف أرنب .

أقف وحدى فى منطقة الصفر ولن أبرحها . لم تعلمنى أمى إلا أن أخوض حروبى الخاسرة فى مواجهة آخرين يخوضون فى دمى ، ويطعنون قلبى بخناجرهم ، ينبشون فى الأوردة والشرايين بحثًا عن كنوز بائدة .

أجلس على حجر صخرى أمام قبر أبى ، والصبار لا تدمى أشواكه يدى : أمى آتية .

هل ستكون فرحًا لأنها عادت بعد هذا الانقطاع الطويل ؟!

عنايات التى حيرتك بحبها المتأجج ، وتخلت عنك عند أول منعطف .

لم أكن صغيراً ولا كبيراً . كنت منشطراً بين حبى إياك وخوفى

منك. فوق ذقنها حسنة أحب أن أتطلع إليها، وحين كنا نقف في الفناء الضيق المستطيل لبيت خالتي هداية كنت أتأمل صوتها الدافئ الذي يتحدث عن تأخرك: من يوصلنا البيت، والدنيا ليل؟

لم أتصور مطلقاً أنها تبيع ذكراها لأنه سيحضر لنا اللحم والفاكهة.

حين نزفت يدي ومزقت ذيل فستانها لتضمد الجرح كانت قد جرحت روحي للأبد.

هل كنت صورة كريهة منها؟ أعرف أنها اغتاظت عندما أدرتَ المؤشر على أغنية عبدالحليم حافظ: (حبك نار).

تأملتني وركعت على ركبتيها تبحث عن حذاء بكعب عال، وأهملت الصوت المنساب في صفاء آسر. كنت أحب هذا المطرب، حرك قلبي بأغانيه الوطنية عن السد العالي والتصنيع الثقيل والاتحاد الاشتراكي وصورة للشعب الفرحان. لكنه الآن في مواجهتي يصرخ في وجهي بحقيقة واحدة: لقد اختارت أمك فودة الخزرجي لأنه يملك وكالة للبلح.

سيغمرها الرجل بأصناف الفاكهة، وسيصبح فراشها دافئاً. قالت: أغلق الراديو.

تألمت وخاصمت المطرب. إن السلاح لم يعد صاحياً. لقد غرق في النوم وتسلل الأعداء تحت الجلد، واضعين أقنعتهم الخزفية على وجوههم الكريهة. إنهم يجالسوننا في المقاهي والوكالات وفوق المصاطب. لقد أحضروا خفية قدوراً ضخمة لطهي أجسادنا. إن الحساء الساخن لن ينفخوا فيه ليبرد فعادتهم أن يلتهموا قطع اللحم دون أن يطرف لهم رمش.

«لو نامت الدنيا.. صاحي مع سلاحي». قلت لمنيرة: سنذهب إلى الشارع ونصعد بعد قليل. قلبت أمي شفتها السفلى إلى الخارج. قالت باستعلاء: تريد أن تصبح رجلاً قبل الأوان؟

أوقفت منيرة أمام البيت وحدثتها: لا نريده معنا.

لم تكن تفهم. قابلني خالد قال لي إن السفينة التي صنعها من الخشب قد غرقت في النيل، وإنه قد خلع هدومه وغطس مرات لينقذها دون جدوى. قلت له مواسيا: لعلها استقرت في القاع. دعها

في القاع استقرت ودخلنا فوجمنا لأن الراديو كان شبه محطم. وهي تنظر نحوي في تشفٍ.

أحسست بالضياع وأطلقت ساقي للريح. شعرت بالغثيان قالت لي انتصاف: لماذا لا تنسى هذا الموضوع؟ احتوتني وكنا في شهر العسل ظمأى لنداء الجسد الخفي: سأعوضك عن كل شيء. سنوات السجن. والحرمان من حنان الأم.

أطفأت النور وأخذت وجهي بين راحتيها كنت في حاجة لأن أنجب طفلاً أتحدى به غدر الدنيا كلها.

قال عبدالحي على سبيل الترضية: يمكنك أن تزوره. لكنه لن يكون في حضانتك.

أتشرب بالأسى. أحاول أن أرتق ذلك القطع دون جدوى. قالت انتصاف بصراحتها المعهودة: لماذا لا تكون مثل أبي؟ لقد بدأ من الصفر. أنت تراه الآن رجلا مرموقاً. المسألة سهلة!

كانت المسألة سهلة بالفعل، لكنني غير مقتنع بها. هل يمكن أن أكوم أفكاري على قارعة الطريق، وأخلع رأسي لكي أبحث عن منزل ورصيد بالبنك وسيارة؟

في جلسة شاي حاولت التبسط معها: انتصاف. لماذا لا نعيش حياتنا في هدوء؟ مثل قبائل الصحراء الذين يعيشون على حبات تمر وكوب لبن
نظرت نحوي في تخوف. غمغمت: نعم؟ قبائل؟!

الآن تجمعت قبيلتي عن بكرة أبيها، وارتدى زعماء العشائر أبهى حللهم. جنود مقوسو الظهر مهزومون. أكلهم المرض والجشع والسفر الطويل. اقتص منهم الزمان بكل روية. نظر إليهم في احتقار وأمكنه أن يفرض كلمته فرماهم بأيامه القاسية الموجعة. هم الآن يمصمصون

الشفاه فى حسرة ويندبون شبابهم الذابل وتفكيرهم الشائخ.

الآن يمكننى أن أبايع الحاج وصفى زعيماً لهذه القبيلة. أعرف أن الوصول إلى العرش يحتاج إلى براعة وحنكة ومؤامرات تدبر للإطاحة بالخصوم.

لكن أين هم الخصوم وقد تمكن الموت منهم وطواهم فى زوايا النسيان؟

القبائل الأخرى تحاول أن تغير على مراعينا، وتنتزع منا عيون الماء، والمراعى سندسية.

سيمكننى أن أتدبر أمرى. سأحمل اللواء وأتقدم.

علمتنى الحرب أن أنتبه وأرصد كافة التحركات مع يقظة متزايدة حين تُنسج خيوط الفجر الأولى، ومع غروب آخر ضوء. تلك اللحظات التقليدية المناسبة للهجوم.

الصول بركات صرخ فى الخلاء، والدانة تصفر بجوار أذنه. مضى عليه يومان وهو لا يسمع.

فى اليوم الثالث طحنت القنابل عظام رجال السرية وأفلت من الموت وهو معى.

بكاء ودماء فى القطاع الأوسط. فى السنوات التالية يكون العرض العسكرى وتصاحبه الموسيقى النحاسية. وسط عدسات التلفزيون وميكرفونات الإذاعة تتحرك الأقدام فى بطء لوضع باقات زهر على قبر الجندى المجهول.

أنا أعرفهم جميعاً، لا شىء مجهول عندى، يمكننى أن أسير فى كل التباب داخل المثلث المقلوب، قاعدته من الجنوب إلى الشمال، لأنبش بيدى حفر سيناء وأسمى كل شهيد باسمه، وأثبت الخوذ المثقوبة والصدئة. هنا سقط صبرى المر، وهنا دُفن جندى الإشارة، وهنا.. وهنا.. وهنا.. أزيحوا الستارة القطيفة وتأملوا قطعة الرخام:

«هنا قلب جيلى الذى توقف عن النبض».

لا عزاء. ما الذى تريده منى عواطف وهى تحدثنى عن تراجيديا خاصة بها؟

زيزى ستكبر فى حضانتها وسترتدى مثلها سراويل ملونة، ترقص بها فوق خشبة المسرح، ليرتفع القرص الهائل فى الفراغ، وتسلط عليه الحزم الضوئية بينما الحلزون يدور، وسيكون الصعود سريعاً، والسقوط ممتزجاً بالصرخات المجنونة.

لها قنينات الخمر المعتقة، وأفيشات الأفلام، وقطع اللبان، وعلب الأناناس، وشرائح البسطرمة، ومشدات الصدر، وبنس الشعر، والمجلات الإسكندنافية ذات الأغلفة المصقولة التى تنشر العرى. كل ما هو براق ومثير للاشتهاء.

هذا عصر يستهلك كل شىء. الخشب والصلب والمعادن الفلزية لا وجود لها.

توجد فقط طبعات من بلاستيك مطبوخ تحت طوعك. أهو عالم كريه غير معقول؟

لماذا تنفتحين فى البكاء وأنت التى اخترت قاتلك؟

لا يمكنك العثور على شجرة أو شرنقة أو شاطئ فقط ستقبضين على نسخ شائهة من خواء وخسران وخرفان!

هذه المرة لن أحاول الثأر، لأن خيبتك هى خيبتى. كل ما فى الأمر أننى قررت أن أوزع الثروة: ثروتى. سيحمل كل إنسان الشىء الذى يخصه منها. هناك عدل ومساواة، وسيحضر القسمة أولو القربى واليتامى والمساكين. أيضاً سيكون فى المقدمة أبناء عمومتى وأخوالى: أحفاد القردة والتماسيح!

تقفين على خشبة المسرح تحاولين إسدال الستارة بكلتا يديك، وأعصابك لا تطاوعك.

الديكور مكلف، وهو عبارة عن كهف ملىء بالعقارب والعناكب المتوحشة. سأدخل فيه كل رفاقى: الموتى والأحياء.

من مات وأجريت له المراسم فى عجلة سيموت مرة أخرى بطريقة

لا يعرفها سواى، أما الحى فسيتجرع العلقم.

قالت نشوى شعرها الرقيق الهامس فتضاحك الغجر عليها، وابتلعتها الضوضاء. هل كانت تصلح لى؟ طلقة نارية فى صدغى. ضجة ويحملون جثتى على محفة ويمضون.

نقطة دم على الأسفلت تحط عليها ذبابة زرقاء بديعة الشكل. ليست مخيفة إلا لمن ينتظرها.

لم أنتظر موتتى. ينساب صوت فحيح، فأتدحرج فى حفرتى. هى الآن تتقدم منى، تهمس بصوتها الذى أعرفه وقد امتلأت قليلاً. مازالت تثير فى قلبى الرومانسية الوردية التى اغتالها بكل غلظة.

أدخلى نهديك يا أميرة، توقفى عن ملاحقتى بطلبات استرحامك. حسناً سأمنحك صكاً بالبراءة. سأصدق روايتك. فالحجرة المعتمة هى التى جعلتك تستسلمين بسهولة، وتقدمى له المتعة على طبق من ذهب. لو فضح النور الأشياء: قطع الأثاث، وصور الجدران، أطراف الثياب المنزوعة لبقيت لى؟!

أصدقك. كفى فقط عن البكاء الصامت على اللبن المسكوب.

لم يكن الثدى به لبن. فقط رغبة محرمة ورجرجة ضوء، ولمعة، وخنجر يغوص فى قلبى رويداً رويداً، وأنت تشهقين.

أقف. النسوة شعورهن منكوشة، يمسكن المناديل يلوحن بها، النعش يخرج من الباب فى صعوبة. تنتصب أجساد المشيعين فى خشوع وهيبة، يتذكرون سطوته وامتقاع وجهه وضحكته الفظة التى تسبق حصد أرواحهم والسكرات تطوحهم.

هى الآن تمضى. تتدافع الأيدى لتحمل الجثمان داخل النعش الخشبى القديم. للموت رائحة تتسرب إلى النفوس. والدايم هو الله. كل من عليها فان. يقف شعر رأسى. وأبحث عن دموع لتخفف احتقان عينى. لا أجد. تدفعنى يد غليظة للصف الأمامى. أتفادى صدر الموكب. بغير

إرادة منى أكون فى المنتصف تماماً.

يبكى شكرى. يكاد ينهار، وفتحى الذى بهرنى بتماسكه يجهش فى بكاء مر. أتعثر فى قطع من حجارة بازلتية ناتئة بأرضية الشارع.

أنظر إلى الغطاء البنفسجى القاتم، الخشن. تحته ترقد أمى. أريد أن أخفى اضطرابى. أصوات المرتلين تنتظم. لحظة صفاء نادرة. صرخت: أمى.

أطباق ملونة رخيصة فيها طعام يفوح منه رائحة طيبة. قالت: شمر عن ساعديك وذق معى. قلت: لا نفس لى.

ثم مضيت فى السير، والشمس قد بدت واهنة لكنها تتابع خطواتنا وتمنحنا ظلاً خفيفًا لا قيمة له.

تحت البواكى يقف الرجال فى المقاهى، يمدون السبابة أمام صدورهم. يقرءون الفاتحة. أراقب حركة الشفاه المرتجفة.

صعدت إلى ذروة التل. قطفت زهرة الياسمين، وضعتها على القبر. قالت أمى: اتركوه لى الآن. سوف نتصالح.

كانت عروقى فى يدى نافرة، كنت فى حاجة ملحة لذلك.

لقد ذهب ما بصدرى من كرب، وجدتنى أبكى فى صدرها بحرقة، وهى تربت على شعرى بيدها المتيبسة: لا تخش شيئاً. سوف تمر الأزمة.

توسلت إليها والحمام فى دورانه يتبعنا وهديله يحزن القلب: هل تذهبين؟

فى شبه ابتسامة وبغموض لم يكن باستطاعتى أن أفسره قالت: لن أتركك.

بعد الآن لن أتخلى عنك يا عبدالعزيز.

قالت منيرة وهى تتبعنى والرعد يقصف فجأة: هى أمك.

حسمت أمرى: سوف أتبعك! ●

انتهت فى ١٩٨٥/٧/٢٦

الفهرس

المؤلف
سمير مصطفى الفيل

صدر له :

- **الشــعر :**
  - الخيول، مديرية الثقافة بدمياط، سبتمبر ١٩٨٢ .
  - ندهة من ريحة زمان، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٩١ .
  - ريحة الحنة، مديرية الثقافة بدمياط، ١٩٩٨ .
  - نتهجى الوطن فى النور، الهيئة العامة لقصور الثقافة، أبريل ٢٠٠٠ .
  - سجادة الروح، إقليم شرق الدلتا الثقافى، مايو ٢٠٠٠ .
- **الرواية :**
  - رجال وشظايا، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٩٠ .
  - ظل الحجرة، مركز الحضارة العربية، أغسطس ٢٠٠١ .
- **القصة القصيرة:**
  - خوذة ونورس وحيد، دار سما، إبريل ٢٠٠١ .
- ***دراسات ومراجعات :**
  - الحكيم وحماره، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ١٩٩٩ .
- **حوارات صحفية:**
  - مواجهات، مديرية الثقافة بدمياط، مارس ٢٠٠٠ .
  - تقاطعات ثقافية، مديرية الثقافة بدمياط، مارس ٢٠٠١ .

من قائمة الإصدارات الأدبية

رواية - قصة

ليلة العشق والدم	إبراهيم عبد المجيد	سراديب	عفاف السيد
حمدان طليقاً	أحمد عمر شاهين	اينارو	د. على فهمى خشيم
ملاعيب الأكابر	أحمد الشيخ	حكاية شمردل	عمار على حسن
سريب	أحمد الفيتورى	جنية الشفق (قصص شاعرية قصيرة جدا)	د. فاروق أوهان
وقائع غرق السفينة	إدريس على	البحر يغرق	د. فاروق أوهان
صخور السماء	إدوار الخراط	وجهها وطن	فاطمة يوسف العلى
تباريح الوقائع والجنون	إدوار الخراط	تاء مربوطة	فاطمة يوسف العلى
مخلوقات الأشواق الطائرة	إدوار الخراط	لبلاد طلبت أهلها	فيصل سليم التلاوى
همس العاشقين	أمين بكير	يوميات عابر سبيل	فيصل سليم التلاوى
حكايات من دفاتر النسوان	أمين بكير	وتر مشدود	قاسم مسعد عليوة
دنا فتدلي (من دفاتر التدوين ٢)	جمال الغيطانى	خبرات أنثوية	قاسم مسعد عليوة
مطربة الغروب	جمال الغيطانى	ترانزيت	ليلى الشربيني
تكوينات الدم والتراب/الخروج عن النص	د. جمال التلاوي	الفتيت المبعثر	محسن الرملى
المتعبون	جمعة محمد جمعة	المينا الشرقية	محمد جبريل
دموع إيزيس	حسنى لبيب	مد الموج	محمد جبريل
يومية هروب	خيرى عبد الجواد	حريم .. (أعزكم الله)	محمد الغربى عمران
العاشق والمعشوق	خيري عبد الجواد	الخروج إلي النبع	محمد قطب
سيرة عزية الجسر	سعد الدين حسن	يا عم يا جمّال	محمد الناصر
شجرة الخلد	سعد القرش	الحياة الذروة	د. محمد نعيم شريف
شهقة	سعيد بكر	الحبيب المجنون	د. محمود دهموش
أيام هند	سيد الوكيل	فندق بدون نجوم	د. محمود دهموش
الممنوع من السفر	شوقى عبد الحميد	اختزال في المسافة والسفر	محمود الورواري
أيام الغربة الأخيرة	صالح سعد	الحنين إلى النسيان	ممدوح القديرى
دردانين	عاشور الطويبى	الضياع وجبل الأوهام	ممدوح القديرى
الدميرة	د.عبد الرحيم صديق	الهروب مع الوطن	ممدوح القديرى
الخرابة	د.عبد الرحيم صديق	دم الأبنوس	ناجي الشكري
ليس هناك ما يبهج	عبده خال	ويصدأ ماء النهر	ناصر الهلابي
لا أحد	عبده خال	حافة الفردوس	نبيل عبد الحميد
آخر ما قاله النهر	عز الدين الأسوانى	قمر أخضر	نهلة السوسو
صعيدي صنح	د. عزة عزت	خلف النهاية بقليل	وحيد الطويلة

بالإضافة إلى العديد من الكتب الأدبية ؛ رواية .. قصة .. شعر .. دراسات ونقد وكتب متنوعة : سياسية ، قومية ، دينية ، معارف عامة ، تراث ، وأطفال .
خدمات إعلامية وثقافية